الفصل الثالث

أسلوبه الدعوي وثروته الفكرية، وصفاته الربانية

المبحث الأول

الأسلوب الدعوي عند ابن السنوسي

كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمدّاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن رسالته إلى شيخ زاوية المدينة ابن الشفيع نلاحظ ذلك حيث قال: «. . . وحسنوا أخلاقكم ولينوا جانبكم للكبير والصغير، قال تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83] وقال جل وعلا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125] وقال ﷺ: **«ارفقوا فإن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وإن الحمق ما كان في شيء إلا شانه، وارفعوا همتكم عن الخلق»**، وقال ﷺ: **«ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد ما في أيدي الناس يحبك الناس»** عليكم بالمناصحة والمذاكرة وإرشاد عباد الله إليه والمدارسة والاجتماع والتحابب والتوادد فيما بينكم، ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً وعلى البر أعواناً»[1].

ولذلك نجد دعاة الحركة السنوسية يتخذون الرفق واللين في دعوتهم منهجاً، وتعلموا ذلك من مؤسس الحركة ونلاحظ ذلك في عدة أمور منها:

أولاً - التعامل مع الطرق الصوفية:

تميز زعماء الحركة السنوسية بالحلم والرفق، ولذلك تجنبوا الاصطدام مع الطرق الصوفية في ليبيا، والحجاز، ومصر، وغيرها، فبدلاً من كسب عدائهم، عملوا على نصحهم والتعاون معهم في أمور الخير، وشيئاً فشيئاً دخل بعض زعماء الطرق الصوفية في ليبيا في بوتقة

---

(1) انظر: جامعة السيد محمد بن علي السنوسي الإسلامية، من رسالة: 12 ربيع 1224 هـ.

الحركة السنوسية، وبقيت الطريقة الصوفية المدنية تتمتع بنفوذ محدود لدى قسم القبائل البدوية[1]، وكانت معاملة السنوسية لباقي الطرق فيها رفق وتسامح ونصح، واستطاعت أن تبين لأتباع الطرق الأخرى الأخطاء التي وقعت فيها، كالغناء، وهز وضرب الدفوف، وسارت بمنهجية حكيمة حتى استطاعت أن تهيمن على البوادي، والواحات، والمناطق الداخلية، وأصبح ولاء تلك الأماكن لفكر الحركة السنوسية، وأصبح نشاط الطرق الأخرى محصوراً في المدن، كبنغازي، وطرابلس وغيرها، بعيدة عن الصراع السياسي العالمي، بعكس السنوسية التي استطاعت أن تصبح حركة سياسية مؤثرة، ومن أشهر الطرق الصوفية في ليبيا: العروسية، والعيساوية، القادرية، المدنية، السعدية والطيبية، والعزوزية[2].

ثانياً - عتق ابن السنوسي للعبيد من الأفارقة:

كان ابن السنوسي يهتم اهتماماً كبيراً بدعوة القبائل الوثنية في إفريقية، فمن وسائله في نشر الإسلام بقلب إفريقية، أنه اشترى مرة قافلة من العبيد، كان المستعمرون قد خطفوهم ليعرضوهم في سوق الرقيق، ولكن ابن السنوسي أعتقهم جميعاً وأكرمهم وعلمهم الإسلام، وبث فيهم حبه وتقديره، ثم تركهم ليعودوا إلى قبائلهم وذويهم دعاة يتحدثون عن طغيان المسيحيين وبر المسلمين، فكانوا دعائم مهمة لنشر الإسلام بين أهليهم وقبائلهم[3]، وكان يشتري العبيد من القبائل التي كانت تغير على القوافل ليعتقهم، وعمل على دعوة القبائل إلى الالتزام بالإسلام، وتخليص العبيد من العبودية، وكان ابن السنوسي يشرف بنفسه على تربيتهم وتعليمهم ثم يرسلهم إلى قبائلهم، ودعوة الزنوج إلى الإسلام، وبفضل الله ثم هذا الأسلوب، أصبحت قبائل «وادي في تشاد يرسلون أبناءهم لتعلم الإسلام في الجغبوب وغيرها من الزوايا السنوسية»[4].

ثالثاً - التعامل مع القبائل وتوظيفها للدعوة:

اهتم ابن السنوسي في دعوته بزعماء القبائل، واستطاع أن يجعل من بعضهم دعاة إلى الله، كما رأينا في سيرة مرتضى فركاش، وأبو بكر بوحدوث وغيره، واهتم بتوصيل الدعوة إلى الأحياء البدوية، ونظم أمر الدعاة المكلفين بهذه المهمة وحرص على أن يضرب أروع الأمثلة في العفة، والاستغناء عما في أيدي الناس من متاع الدنيا، وقام بإرسال الكثيرين من المرشدين

(1) تاريخ ليبيا المعاصر، محمود عامر، ص32.
(2) انظر: المجتمع الليبي، ص325.
(3) انظر: موسوعة التاريخ الإسلامي، محمود شاكر .437
(4) انظر: السنوسية دين ودولة، ص39.

والوعاظ إلى مواطن البدو البعيدة، فكان يرسل بعض إخوانه إلى جهات خاصة، ويحدد لهم مادة عملهم ثم يرسل بمن يخلفهم، ليعود الأوائل لأخذ الراحة.

وكانت إحدى البعثات مؤلفة من السيد مرتضى فركاش، حسين الغرياني، فقاما بالدعوة إلى الله بين القبائل، ومن شدة فرح البدو بهم أهدوا إليهم هدايا من الإبل والبقر والغنم، ولما أكملوا مدتهم ورجعوا إلى ابن السنوسي، وعلم بما حدث احمر وجهه، وظهرت على وجهه علامات التأثر، وقال لهما: ما جئت لأجمع مالاً ولا لأرغب في الدنيا ولم أرسلكما لتجمعا لي مالاً ولكنني جئت لأنشر علماً وديناً، فارجعا بكل ما معكما لتسلمانه إلى أصحابه بالعدد، وقال لدعاته: لا تشقا على أحد ولا أود أن يتكلف أحد بضيافتكما فخذا أمتعتكما وكل ما يلزمكما ولا تتقبلا من الأهالي شيئاً إلا (الزبدة) واللبن (الممخوض).

وقام الشيخان مرتضى فركاش، وحسين الغرياني، بإرجاع الهدايا إلى أصحابها، فكل من يعطيانه ما كان جاد به يتكدر ويتأثر ويقول: لعل ابن السنوسي رفض قبول ما قدمته لشيء في نفسه عني، فيقنعانه بأن ابن السنوسي تمام رضاه في أن تقبل ما جدت به وأن ترسل بابنك إلى الزاوية ليتعلم وأن تحضر معنا دروس الوعظ والإرشاد[1]، وانتشر بين البدو أن ابن السنوسي أمر دعاته بأن لا يشقا على أحد في إكرامهما، فتحايل البدو في إكرام الدعاة إلى الله، فأسلوب ابن السنوسي لم يقتصر على الزوايا، بل أرسل الدعاة إلى القبائل البعيدة لتعم دعوة الإسلام المباركة كل الناس[2] واستطاع ابن السنوسي أن يقنع القبائل البدوية بأهمية الدعوة إلى الله، وخصوصاً تلك التي كانت تتعامل في التجارة مع وثنيي إفريقيا لنشر الدعوة هناك، ومن أشهر تلك القبائل التجارية الصحراوية: أولاد سليمان الطوارق، التبو، المجابرة، الزوية[3].

رابعاً - ضرب الأمثال عند ابن السنوسي:

استخدم ابن السنوسي وسيلة ضرب الأمثال في أسلوب دعوته، وقد استنتج هذه الوسيلة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]، وإن لضرب الأمثال في القرآن الكريم والسنة فوائد كثيرة ومنافع جمّة منها:

1 - تقرير الحقائق تقريراً واضحاً جلياً.

(1) انظر: برقة أمس واليوم، ص165.
(2) انظر: برقة أمس واليوم، ص166.
(3) انظر: المجتمع والدولة والاستعمار في ليبيا، ص131.

2 - تقريب المراد وتفهيم المعنى وإيصاله إلى ذهن السامع.

3 - تشويق السامع وترغيبه إلى الإيمان والخير والحق المعروف والفضيلة.

4 - تنفير السامع وترهيبه من الكفر والشر والباطل والمنكر.

5 - تذكير السامع ووعظه ليعتبر وينزجر.

6 - تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر.

7 - تأتي لإثارة الانفعالات المناسبة للمعنى المراد، وظهور ذلك على وجه السامع، ولذا فقد اختير لها لفظ الضرب، لأنه يأتي عند إرادة التأثير وهيجان الانفعال، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعاً ينفذ تأثيره وأثره إلى قلبه وينتهي إلى أعماق نفسه[1].

ولذلك استخدم ابن السنوسي ضرب الأمثال في الدعوة والإرشاد والوعظ والتذكير التي تؤثر في القلوب والنفوس أثراً بليغاً في قبول الدعوة، وتوصيل المفاهيم إلى الناس، ومن ذلك حديثه للإخوان أثناء بناء الجغبوب حيث كان يشرف بنفسه على العمل ويخطط بناء السور على شكل مربع ثم يخاطب الحاضرين يقول لهم:

«الطير له عقل أم لا؟ فقالوا: لا عقل له فقال: هو لا يضع بيضه إلا فوق جبل شامخ حتى لا يلحقه ذيب، ولا ثعلب ولا غيرهما». وقال: اليربوع له عقل؟ فقالوا له: لا. فقال: هو يجعل في حجره طربقة: وهي النافقاء، فإذا دخل عليه الحنش الأسود عليها من هنا وقال: «تلقونها أحسن المحلات إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا» وأشار بأصبعه السبابة من المشرق إلى المغرب»[2].

ويلاحظ الباحث أن ابن السنوسي استخدم لغة الحوار والاستجواب، وفي هذا الأسلوب دعوة للتفكير، وتشجيعاً على المناقشة وتعويد الإخوان على العطاء والمشاركة وإبداء الرأي، وإن هذا الأسلوب في الحوار والمناقشة يثير الانتباه لتلقي المعلومات، ويذهب السآمة، ويزيل ما يصيب النفس من ملل نتيجة الإلقاء الطويل، ويشوق الذهن، وينشط العقل لمواصلة السعي، وبهذا الأسلوب استطاع ابن السنوسي أن يركز على بعض الحقائق لترسيخها في النفوس وتثبيتها في القلوب وتحذير إخوانه من الخطر الداهم على بلادهم، والدعوة للاستعداد لمواجهة هذا الخطر.

لقد أشار إلى مجيء الطليان في قوله: إذا أتى الحنش الأسود عليها من هنا.

---

(1) انظر الحكمة والموعظة الحسنة، د. أحمد المورعي، ص274.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص154.

خامساً - استخدام القصة عند ابن السنوسي:

إن من طبيعة النفوس البشرية إذا خوطبت تلقائياً بكلام نظري مجرد يتبع آخره أوله، فإن جهدها التفكيري يضعف، واستعدادها النفسي يذبل، فلا تعود تعي أو تفهم شيئاً مما يقال لها، ولذلك استخدم ابن السنوسي الأسلوب القصصي في تجسيد الأحداث على شكل أشخاص، يتحرك معها القلب، وتنشط لها الآذان والعقول، فهي تثير الانتباه والحواس لمتابعة أحداث القصة. ماذا سيحدث؟

إن القصة تعتبر من أنجح الأساليب للتقويم والنصح والإرشاد، فأسلوبها له تأثيراته النفسية، وانطباعاته الذهنية، وحججه المنطقية والعقلية في نفوس المدعوين، فهي تستولي على قلوبهم استيلاءً أشبه بالقهر وما هو بالقهر، وأفعل من السحر وما هو بالسحر لما لها من سرعة نفاذ، وقوة تأثير، واستمرار أثر[1].

إن الغرض الأكبر من الأسلوب القصصي للدعاة، أخذ العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: 111].

ولذلك كان ابن السنوسي يكثر من استخدام القصة لتفهيم إخوانه وأتباعه، باعتبارها أسلوباً مهمّاً، ووسيلة تعليمية ناجحة، ومن ذلك قصة حكاها لابنه وإخوانه يبين لهم فيها أهمية القيادة في الجماعة، وضرورة المحافظة على القائد الذي هو بمثابة الرأس من الجسم والقصة كما قالها محمد المهدي السنوسي: «كنت جالساً مع سيدي ﷺ وتكلم معي طويلاً في الرحلة مقبلاً لجهة الجنوب ثم حكى لي حكاية بأنه كان كبير قوم ارتحل هو وقومه من مكان إلى مكان، فبينما هم في أثناء الطريق وإذا بالعدو قد ظهر عليهم فالتفتوا إلى جميع الجهات ينظرون ملجأ يأوون إليه، فلما لم يروا شيئاً قالوا لم يبق إلا القتال، وكبير القوم معه ولد، فصار الولد كلما رأى العدو آتياً من جهة حوّل أباه إلى جهة أخرى، فقال له بعض القوم: أنت ما شغلك إلا أبوك. قال لهم: نعم رجل كألف وألف خفاف كاف. فقال ﷺ: صدق الولد، متى كان الرأس موجوداً، فالذي يذهب يأت الله بمن يكون مثله أو فوقه أو دونه»[2].

سادساً - استعماله للشدة في موقف الشدة:

كان الأصل في أسلوب ابن السنوسي استعماله اللين والرفق، ومعاملة الناس بالحسنى

(1) انظر: الحكمة والموعظة الحسنة، ص288.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص154.

والتودد إليهم وكسب قلوبهم، ولكن في بعض الأحوال والظروف كان يستخدم الشدة لكونها أنسب، وأوقع، وأعمق أثراً، فكان يقدر للأمور قدرها ويعطي كل موقف من اللين والرفق أو الشدة والحزم، قال الشاعر:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم[1]

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: 83].

إن القول الحسن ليس هو عبارة عن القول الذي يشتهيه المدعو ويوافق هواه ويحبه بل القول الحسن هو الذي يحصل انتفاعه به سواء حصل عن طريق اللين، والرفق أو الشدة والحزم، وعلى هذا قد تكون الشدة من القول الحسن[2].

لذلك كان ابن السنوسي ضابطاً لأتباعه يحسن توجيههم ولا يتهاون في معاقبة المنحرف منهم. وقد حكى أحمد الشريف في رحلته عن أحد شيوخ الحركة واسمه المدني التلمساني، أنه كان مقدم إحدى الزوايا في الصحراء «فثار بها للجهاد في كافر وأمه جاءا سائحين، الكافر يداوي الرجال وأمه كحالته تداوي النساء، فلم يشعرا إلا والمجاهد قد قام عليهما ومعه المعاون سيدي عبد الهادي الفاسي خرجا بسلاحيهما حامل غدرية عربية وبندقية قصيرة والمعاون متقلداً سيفاً قد أخرج من نصله قدر ثلاثة أصابع لإرهاب العدو، فصادفا حاكم البلاد وهو تركي، فقال لهم القائم للجهاد: اليوم يخرج النصراني من البلاد، فقال له: أمهله اليوم وغداً يخرج فقال المجاهد لا بد أن يخرج اليوم، فتلطف التركي معه فلم يفد. واشتد الخصام بين القائد التركي وبين الشيخ وتراشقا بالكلام وحدثت فتنة عظيمة، فلما وصل الخبر إلى ابن السنوسي أرسل إليهما وعندما وصل المعاون قبل القائم فهجره أياماً حتى قدم مقدم الزاوية فخاصمهما وقال لهما: أنا أرسلتكما للقراءة والدلالة على الخير أو أرسلتكما حاكمين؟ ولم يرجعا إلى محلهما»[3].

فهذه الحادثة تعطي للباحث فكرة عن ضيق أفق مقدم الزاوية وعن موقف ابن السنوسي من انحرافه، وعن الأسلوب الذي اتبعه في عقابه، فهو يهجر المعاون أياماً دلالة على شدة غضبه ثم يخاصم الاثنين، ويبين لهما انحرافهما عن مهمتهما كدعاة ويعزلهما عن عملهما، وموقفه الشديد هذا لا يستغرب لأن تصرفهما كان يخالف كلية خطة ابن السنوسي في الدعوة إلى الله بالحكمة وعدم الاحتكاك بالسلطة[4].

(1) انظر: شرح الحماسة للمرزوقي (3/ 1121).
(2) انظر: مفاتيح الغيب للرازي (3/ 168).
(3) انظر: الرحلة، لأحمد الشريف، مخطوط ص20.
(4) انظر: الحركة السنوسية، ص155.

سابعاً - من رسائل ابن السنوسي الدعوية:

كانت رسائل ابن السنوسي التي يبعث بها إلى الإخوان أو لغير الإخوان، تتجلى فيها شخصيته الدعوية، ففي رسالة بعث بها في محرم 1276 هـ إلى شيخ زاوية الطيلمون مصطفى المحجوب يقول موصياً الإخوان: (والوصية لكم بالوقوف في باب الله بالجد والاجتهاد، ودلالة الخلق إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، والتخلي عن التواني والكسل، وابذلوا الوسع في حصاد الزرع والدراس والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ومثلكم لا يؤكد عليه ولا يحتاج إلى توصية فيما هو بين يديه، جعلك الله دليلاً للسعادة مراعياً قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26][1].

فكان ابن السنوسي -رحمه الله- في هذه الرسالة يحث إخوانه على الجد والاجتهاد، ودعوة الناس إلى سبيل الرشاد، بالقول والعمل، ويدعوهم إلى ترك التواني والكسل، وأن يستعدوا للآخرة، كأن آجالهم تأتي غداً، والعمل للدنيا، كأنما يعيشون أبداً، ولذلك حثهم على حصاد الزرع، والدارس، والتحفظ عليه من التشتيت بأيدي الناس، ويطلب منهم الإحسان في أعمالهم الدنيوية والأخروية.

هذه بعض الخطوط العريضة التي تبين لنا أسلوب ابن السنوسي الدعوي.

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص158.

المبحث الثاني

الجانب الفكري عند ابن السنوسي من خلال كتبه

إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال مؤلفاته التي ضمنها آراءه في عدد من المواضيع، وهذا مهم لفهم الحركة السنوسية. لم يستطع المؤرخون أن يحصروا عدد الكتب التي ألفها ابن السنوسي، ذلك أن الكثير منها فقد، وطبع بعضها، ولا يزال البعض الآخر، كمخطوطات، وحاول الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة إجراء بحث عن (سيرة ابن السنوسي الكبير وفقد المصادر)[1]، وقد اختلف مؤرخو الحركة في ذكر الكتب التي ألفها ابن السنوسي، فزيادة نقولا يذكر أن السنوسي الكبير كتب تسعة كتب أحدها كان شعراً[2]، أما محمد فؤاد شكري، فيذكر أسماء خمسة كتب مطبوعة وثلاثة لم تطبع[3]، وأما الأشهب فيقول ثمانية كتب طبعت وتسعة لم تطبع[4]، وأما إسماعل باشا البغدادي في كتابه (هداية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين) نسب لابن السنوسي خمسة وثلاثين مؤلفاً بين كتاب ورسالة ذكر أسماءها[5]، ولقد ضاعت كتب كثيرة لابن السنوسي نتيجة لاحتلال إيطاليا للكفرة، ونتيجة لاحتراق المكتبة في مدينة سلوق.

وعلى أية حال فإن الكتب المطبوعة من مؤلفات ابن السنوسي هي:

1 - كتاب المسائل العشر المسمى بغية المقاصد في خلاصة الراصد. مطبعة المعاهد بالقاهرة: آخر 1353 هـ.

2 - السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين: وهو بهامش الكتاب السابق.

3 - المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق، الطبعة الأولى 1373 هـ/ 1954م، مطبعة حجازي القاهرة.

4 - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، الطبعة الأولى 1357 هـ/ 1938 م، مطبعة حجازي القاهرة.

---

(1) نشر البحث في مجلة كلية الآداب في الجامعة الليبية المجلد الأول، ص189.

(2) انظر: برقة الدولة العربية الثامنة، ص73.

(3) انظر: السنوسية دين ودولة، ص41.

(4) انظر: السنوسي الكبير، ص81.

(5) انظر: الحركة السنوسية، ص131.

5 - الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية، الطبعة الأولى 1349 هـ، مطبعة الشباب بالقاهرة، الطبعة الثانية 1373 هـ، مطبعة الشباب بالقاهرة.

6 - رسالة المسلسلات العشرة في الأحاديث النبوية، 1357 هـ، مطبعة الشباب بالقاهرة.

7 - رسالة مقدمة موطأ الإمام مالك، الطبعة الأولى 1374 هـ، مطبعة الشباب القاهرة.

8 - شفاء الصدر بأري المسائل العشر[1] (الأري: العسل) 1360 هـ، مطبعة المحمودية.

أما الكتب التي لم تطبع وورد لها ذكر في الكتب المطبوعة مما يؤكد وجودها فهي:

1 - الشموس الشارقة في أسانيد شيوخنا المغاربة والمشارقة: ورد ذكره في (المنهل الروي) ص(6) يسميه ابن السنوسي (فهرستنا الكبرى)، وورد ذكره أيضاً في هدية العارفين تحت اسم (الشموس الشارقة في تراجم مشايخي المغاربة والمشارقة).

2 - الدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (6) وهو فهرسة صغرى منتخبة من الكبيرة. وورد في هداية العارفين بعنوان (البدور السافرة في اختصار الشموس الشارقة).

3 - الكواكب الدرية في أوائل الكتب الأثرية: ورد ذكره في (المنهل) صفحة (7). وورد في هداية العارفين بنفس العنوان مجرداً من (أل التعريف). وهو كتاب يتناول ذكر الكتب التي درسها ابن السنوسي، وأسماء العلماء الذين أخذ عنهم. وقد ذكر مؤلفه أبوابه في كتابه (المنهل) باعتباره سار على نهجه في تأليفه.

4 - سوابغ الأيد بمرويات أبي زيد: ود ذكره في (المنهل) وفي هداية العارفين. وموضوعه فهارس المشايخ الذين درس عليهم ابن السنوسي.

5 - رسالة جامعة في أقوال السنن وأفعالها، وهي منظومة توجد - كما يقول الأشهب - بمكتبة الملك. ولا يرد لها ذكر في (هداية العارفين).

6 - هداية الوسيلة في اتباع صاحب الوسيلة. وهي منظومة وتوجد بمكتبة الملك وقد وردت في (هداية العارفين).

7 - طواعن الأسنة في طاعني أهل السنة.

8 - رسالة شاملة في مسألتي القبض والتقليد، ويقول الأشهب: إنها موجودة بمكتبة الملك.

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص81.

9 - رسالة السلوك، موجودة بمكتبة الملك، وردت في هداية العارفين بعنوان (منظومة السلوك...).

10 - شذور الذهب في محض محقق النسب، موضوعه تاريخ أسلاف ابن السنوسي[1].

هذه أهم الكتب التي ألفها ابن السنوسي وقد شملت هذه المؤلفات عدداً من المواضيع، وكان أكثرها يتناول مباحث فقهية وصوفية، وفيها كتاب أو كتابان يتناولان مواضيع تاريخية، ونكتفي باختيار ثلاثة نماذج من تأليفه لنسلط عليها الأضواء ونأخذ فكرة موجزة عنها:

أولاً - المنهل الروي الرائق في أسانيد العلوم وأصول الطرائق:

إن هذا الكتاب يعطي الباحث فكرة عن العلوم التي درسها ابن السنوسي، والطرق التي تعرف عليها، والعلماء الذين أخذ عنهم في الحالين، ويظهر من عرض الكتاب أن ابن السنوسي كان بحراً في العلوم، وأن دراسته جمعت الجانبين الفقهي والصوفي[2]، وقد بين سبب كتابة هذا الكتاب فقال: «فقد وقع الاجتماع في بعض ما قدر لنا من الرِّحل حال الترحال من محل إلى محل بجماعة وافرة وعصابة فاخرة ذوي علوم زاخرة، وخيم عاطرة، فكم فيها جهابذة نحارير وأئمة نقد فائق التحارير ما بين مريد السلوك إلى عرفان مالك الملوك، ومريد الأخذ والإجازة رائم التبرك بأسانيد من أجازه، في أقطار واسعة برحابها الشاسعة منهم زمر بنواحي الأعراض وأطراف الجريد وآخرون بطرابلس الغرب وآخرون مراسلون من تونس وما حواليها من البلاد... وآخرون بالمعمور من زوايا برقة القافرة.. فحصلت بيننا وبين من أمكن الاجتماع به منهم المؤاخاة الأكيدة والخلة السديدة مع تواتر المزاورات ولذيذ المحاورات، فتشوقت إذا ذاك أنفسهم الزكية.. إلى الأخذ والإجازة بما لها من القوانين المستجازة؛ فطلبوا لذلك من هذا العبد الحقير، البائس الفقير الإجازة والإخبار بجميع مروياته؛ وما وصل إليه من هذا الشأن ولا من فرسان ذلك الميدان بل لا أرى نفسي أهلاً لأن يجاز فضلاً عن أن يستجاز كما قيل:

فلست بأهل أن أجاز فكيف أن أجيز ولكن الجنون فنون

ولكنهم لعظيم فضلهم وعلو مكانتهم، وجزالة قدرهم، وشغوف استكانتهم، لا يستطاع ردهم، ولا يخيب قصدهم، فكان كالمسوغ لذلك الخطب الهائل، لعاري الأهلية ذي الجيل العاطل؛ تمثلاً بما قيل:

فتشبهوا إن لم يكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام رباح

إذ ما لا يدرك كله لا يترك قلّه، استرواء بالثمد الضنين عند فقد المعين ويرحم الله القائل:

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص83.

(2) انظر: الحركة السنوسية، ص139.

لعمر أبيك ما نُسِبَ المُعلاّ إلى كرم وفي الدنيا كريم
ولكن البلاد إذا اقشعر وصُوّح نبتها رُعي الهشيم

وما أشبه الحال بقول القائل:

إذا غاب ملاح السفينة وارتمت بها الريح يوماً دبرتها الضفادع

ثم يقول: «فاستخرت الله تعالى وأجزتهم بجميع ما يصح لي وعني روايته»[1].

إن الكلام السابق الذي ذكرته يدل على تواضع ابن السنوسي وهضمه لنفسه، وحبه لإخوانه وتلاميذه.

إن ذلك الكتاب فيه اثنا عشر باباً في أشهر الكتب في شتى العلوم، ومقدمة، وخاتمة، ويعطينا فكرة واضحة عن العلوم التي درسها، وقد أخذ ابن السنوسي أسانيد الكتب الأئمة العشرة عن شيوخه، وهي، موطأ الإمام مالك، ومساند الأئمة الثلاثة، مسند الإمام أبي حنيفة، ومسند الإمام الشافعي، ومسند الإمام أحمد، والكتب الستة، صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي المجتبي، وسنن ابن ماجه، وفي الباب الثاني ذكر بعض مشاهير السنن وهي عشرة، سنن الإمام الشافعي، وسنن أبي عثمان سعيد بن منصور الروزي البلخي الخراساني، وسنن النسائي الكبرى وسنن الكشّي، وسنن البيهقي الكبرى والصغرى، وسنن الدارقطني، والسنة للحافظ أبي بكر الضحاك، والسنة للحافظ أبي القاسم هبة الله الطبري، والسنة للإمام أحمد بن حنبل، وثالث باب منه على بعض مشاهير المسانيد وهي عشرة، مسند أبي داود الطيالسي ومسند عبد بن حميد أبي يعلى الموصلي، ومسند ابن أبي أسامة، ومسند ابن الزبير الحمدي، ومسند الحميدي، ومسند الفردوس، ومسند ابن أبي شيبة، ورابع باب منه على بعض مشاهير الصحاح الزائدة على الستة أو السبعة أو الثمانية السابقة وهي عشرة: صحيح ابن حبان، وصحيح ابن خزيمة، صحيح الحاكم، وصحيح الإسماعيلي، وصحيح أبي عوانة، وصحيح الدارمي، وصحيح ابن نعيم المستخرجان على الصحيحين البخاري ومسلم، وصحيح ابن الجارود، وصحيح الضياء المقدسي المسمى بالمختارة، وخامس باب منه على بعض مشاهير المعاجم وهي عشرة: معاجم الطبراني الثلاثة، ومعجم أبي يعلى الموصلي، ومعجم ابن جميع الغساني، ومعجم ابن قانع البغدادي، ومعجم الإسماعيلي، ومعجم التنوخي، ومعجم الحاكم، ومعجم الصحابة للبغوي، وسادس باب منه على بعض مشاهير الجوامع وهي عشرة: جامع الأصول لرزين العبدري، جامع الأصول لابن الأثير الجزري، وجامع عبد الرزاق الصنعاني، وجامعا السيوطي الكبير والصغير، وذيله

(1) انظر: المنهل الروي الرائق، ص6، 7.

وجامعهما للمتقي المسمى بكنز العمال الجامع للجامع الصغير، والذيل له المسمى بمنهاج العمال، والجامع المسمى بمجمع الزوائد للإمام الهيثمي، والجامع المسمى بجمع الفوائد من جامع الأصول، ومجمع الزوائد لابن سليمان الروداني، والجامع المسمى بكتاب الأصول إلى الأحاديث الزائدة على جامع الأصول وسابع باب منه على بعض مشاهير المختصرات وهي عشرة: مختصر جامع الأصول المسمى بتجريد الأصول للبارزي، ومختصر جامع الأصول أيضاً المسمى بتيسير الوصول للربيع الشيباني الزبيدي، ومختصره أيضاً لمحمد طاهر الصديقي الفُتَني، ومختصر البخاري ومسلم، بالجمع بينهما للحميدي، ومختصر بهما بالجمع بينهما للصاغاني المسمى بمشارق الأنوار، ومختصر البخاري للشرجي، ومختصره للسندي، ومختصرهما، ومختصر مسلم للمنذري، ومختصر مسلم للسلمي، ومختصر أبي داود للمنذري، وثامن باب منه على بعض مشاهر كتب الأحكام الجامعة وهي عشرة: كتابا الأحكام الكبرى والصغرى لعبد الحق الأشبيلي، وكتاب المنتقى لمجد الدين عبد السلام بن تيمية الحراني، وكتاب الأموال للقاسم بن سلام الأزدي، وكتاب الآثار لمحمد بن الحسين الشيباني، وكتاب بلوغ المرام لابن حجر العسقلاني، وكتاب الأعلام لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وعمدة الأحكام لعبد الغني المقدسي والمصابيح للبغوي، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، وتاسع باب منه على بعض المشاهير كتب السير والشمائل وهي عشرة: الشفا للقاضي عياض، الخصائص الكبرى لسيوطي، كتاب الشمائل للترمذي، دلائل النبوة للبيهقي، سيرة ابن هشام، تهذيب سيرة ابن إسحاق، تهذيبهما للسلمي، سيرتا ابن سيد الناس الكبرى والصغرى، الاكتفاء للكلاكي، سيرة الحلبي، المواهب اللدنية للقسطلاني، وعاشر باب منه على بعض مشاهير الأربعينات والأجزاء والمصنفات، فمن الأربعينات: الأربعون للقاضي عبد العزيز ابن جماعة الكناني، والأربعون النووية، والأربعون المكية، والأربعون الباجورية، والأربعون الشحامية، والأربعون الجوزفية، والأربعون الهاشمية، والأربعون المنذرية، والأربعون السلمية، . . . . ومن المصنفات: مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبد الرزاق الصنعاني، ومصنف وكيع بن الجراح، ومصنف حماد بن سلمة الرفعي، وحادي عشر باب منه على خمسة أنواع مشتملة على ما يزيد على مائة كتاب. . . ، وثاني عشر باب منه على نحو أربعين تفسيراً وهي على قسمين: القسم الأول في تفاسير السلف مما غالبه مأثور، والثاني في تفاسير الخلف، فالأول: كتفسير ابن جريح الذي هو أول ما صنف في التفسير، وتفسير الإمام مالك بن أنس راوية الجعابي، وتفسير السفيانين الثوري وابن عيينة، وتفسير الإمام أحمد، وتفسير ابن أبي شيبة وتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن راهويه، وتفسير ابن مردويه، وتفسير عبد بن حميد، وتفسير وكيع، وتفسير أبي العالية، وتفسير مجاهد، وتفسير الضحاك، وأضرابهم، والقسم الثاني: كتفسير ابن عطية والقرطبي، والبغوي، والثعالبي،

وتفاسير الواحدي الثلاثة، والكشاف للزمخشري، ومختصر الكواشي، وتفسير الديريني والبيضاوي، والنسفي وأبي الليث السمرقندي، والبكري، والقشيري، والحاتمي، والغزالي، والحداد، والغزنوبي، وأبي حيان البحر والنهر، والجلالين، والدر المنثور للسيوطي، وابن جُزَيّ والثعالبي، وأبي السعود وأضرابهم[1].

إن ابن السنوسي - رحمه الله تعالى - اجتهد في طلب العلم، وشد الرحال إلى العلماء، وقد ذكر في كتابه المنهل الروي الرائق، أسماء العلماء والشيوخ والفقهاء الذين أخذ عنهم، ولازمهم، ولقد كان على يقين راسخ أن الدعوة إلى الإصلاح والنهوض بالأمة تحتاج إلى العلم الرباني الذي هو ركن من أركان الحكمة ولذلك حرص على الوصول إليه، وطرق أسبابه والتي من أهمها:

1 - أن يسأل العبد ربه العلم النافع، ويستعين به تعالى، ويفتقر إليه وقد أمر الله نبيه محمد ﷺ بسؤاله أن يزيده علماً إلى علمه[2]، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

2 - ومنها: الاجتهاد في طلب العلم، والشوق إليه، والرغبة الصادقة فيه ابتغاء مرضاة الله تعالى، وبذل جميع الأسباب في طلب علم الكتاب والسنة[3]، وما أروع ما قال الشافعي:

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء، وحرص، واجتهاد، وبلغة ... وصحبة أستاذٍ وطول زمان[4]

3 - ومنها: اجتناب جميع المعاصي بتقوى الله تعالى فإن ذلك من أعظم الوسائل إلى حصول العلم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: 29].

4 - منها: عدم الكبر والحياء عن طلب العلم، قال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحٍ ولا مستكبر»[5].

5 - ومنها، بل أعظمها وُلبُّها: الإخلاص في طلب العلم، قال ﷺ: **«من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله - عز وجل - لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»**[6] يعني: ريحها.

---

(1) انظر: المنهل الرائق، ص8، 12.
(2) انظر: تفسير الإمام البغوي (3/ 233).
(3) انظر: تفسير السعدي (5/ 194).
(4) انظر: ديوان الشافعي، ص116.
(5) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (1/ 228).
(6) انظر: أبو داود، باب في طلب العلم لغير الله (2/ 323).

6 - العلم بالعمل[1]: لأن العلم لا يكون ركناً من أركان الحكمة ودعائمها إلا بالعمل، والإخلاص، والمتابعة[2].

هذه بعض الأسباب التي اتخذها ابن السنوسي حتى وصل إلى ما وصل إليه، وكان عظيم الاحترام للعلماء، ويرى لا وصول إلى العلم النافع بعد توفيق الله إلا من خلالهم، وما أجمل ما قاله السخاوي: «من دخل في العلم وحده خرج وحده» أي من دخل في طلب العلم بلا شيخ خرج منه بلا علم[3].

ثانياً - الدرر السنية في أخبار السلالة الإدريسية:

وهذا الكتاب ألفه ابن السنوسي في التاريخ، ويتحدث عن ملوك الأدارسة الذين حكموا المغرب والدول التي أقاموها. وفي مقدمته يتحدث عن فضل علم التاريخ، فنقل ما قاله المقريزي: «لا خفاء أن معرفة علم التاريخ المشتمل على علم الأنساب من الأمور المطلوبة، والمعارف المندوبة، لما يترتب عليه من الأحكام الشرعية والمعارف الدينية...»[4]، وذكر أن من الصحابة كان أبو بكر ﷺ نسابة قريش، ومن أعلم الصحابة في معرفة القبائل وأصولها، وفروعها، وتحدث عمن ألف في علم التاريخ. وذكر منهم: عبيد القاسم بن سلام، والبيهقي، وابن عبد البر، وابن حزم وغيرهم، ثم قال: «وذلك دليل شرفه ورفعة قدره»[5]، وهذا الكتاب يحتوي على مقدمة وست دول: «الدولة الأولى الفاسية وما في أيالتها، الدولة الثانية التلمسانية وما في نواحيها، الدولة الثالثة الغمارية وما في حكمها، الدولة الرابعة السبتية وما في حكمها، الدولة الخامسة الأندلسية وما في حكمها، الدولة السادسة الصحراوية وما في حكمها»[6] ثم أشار إلى المراجع التي تعين الطالب على الإلمام بهذه الدول فقال: «وسترى لك واحدة بياناً شافياً على ما عند صاحب القرطاس والمغرب، وما في العبر لابن خلدون التونسي، وما في سلاسل الفصول لابن خلدون التلمساني وما في عمدة الطالب لابن عنبة»[7].

قام ابن السنوسي في هذا الكتاب بسرد أخبار هذه الدول، وتطرق إلى تاريخ الفتح في

(1) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد القحطاني، ص53.
(2) المصدر السابق نفسه، ص53.
(3) انظر: كتب في الساحة الإسلامية، عائض القرني، ص9.
(4) انظر الدرر السنية في أخبار السلالة الأدريسية، ص5.
(5) المصدر السابق نفسه، ص7.
(6) انظر: الدرر السنية في أخبار السلالة الأدريسية، ص9.
(7) المصدر السابق نفسه، ص9.

المغرب، وإلى مجيء إدريس الأكبر إليه، ثم ختم كتابه بذكر أسماء حكام المسلمين من عهد الراشدين[1] وذكر خامسهم الحسن بن علي ﷺ. ثم أثبت ذكر خلفاء بني أمية جميعاً، حتى إذا فرغ من ذلك أتبعهم بخلفاء بني العباس[2]، ونلاحظ في مقدمة الكتاب اعتقاد ابن السنوسي بوجوب كون الأئمة من قريش، وكان أسلوبه في كتابه هذا الكتاب على منوال أساليب مؤرخي المسلمين عامة، وهو فيه يقوم بالسرد دون التحليل والتعليل، ومادة الكتاب تدل على غزارة اطلاع ابن السنوسي[3] وتذوقه للشعر حيث نجد مقتطفات جميلة من الأشعار، كقول إدريس بن إدريس لنفسه:

لو مال صبري بصبر الناس كلهم ... لكل في روعتي وظل في جزعي
بات الأحبة واستبدلت بعدهم ... همّاً مقيماً وسلماً غير مجتمع
كأنني حين يجري الهم ذكرهم ... على ضميري مجبول على الفزع
تأوي الهموم إذا حركت ذكرهم ... إلى جوارح جسم دائم الجزع[4]

وكقول أبي محجن الثقفي الذي تمثل به أبو المهاجر دينار قبل استشهاده مع عقبة:

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا ... وأترك مشدوداً على وثاقيا
إذا قمت عناني الحديد وأغلقت ... مصارع أبواب تضم المناديا[5]

وكقول الإمام ابن غازي:

وفتح الغرب لسوس الأقصى ... موسى وطارق بما لا يحصى
وجاءنا إدريس عام قعب ... وبنيت فاس في عام قضب[6]

وكقول الحسين بن علي ﷺ:

وإن تكن الدنيا تعد نفيسة ... فإن ثواب الله أعلى وأنبل
وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلة حزم المرء في الكسب أجمل
وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل[7]

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص140.
(2) انظر: السنوسية دين ودولة، ص42.
(3) انظر: الحركة السنوسية، ص141.
(4) انظر: الدرر السنية، ص12.
(5) المصدر السابق نفسه، ص30.
(6) المصدر السابق نفسه، ص41.
(7) انظر: المصدر السابق، ص72.

وكقول الفقيه أبي عبد الله المغيسي في وصف فاش متشوقاً إليها حين ولي القضاء بمدينة أزمور، حيث قال:

يا فاس حيا الله أرضك من ثرى ... وسقاك من صوب الغمام المسبل
يا جنة الدنيا التي أربت على ... حمص لمنظرها البهي الأجمل
غرف على غرف ويجري تحتها ... ماء ألذ من الرحيق السلسل
وحدائق من سندس قد زخرفت ... بجداول كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القروي شرف ذكره ... أنسى بذكراه بهيج مؤمل
وبصحنه زمن المصيف محاسن ... فوق العش الغرب منه استقبل[1]

كما أن في هذا الكتاب يتعرض لذم المبتدعة، كالرافضة والمعتزلة، والجبرية، وقال: ذكر أهل العلم من فضائل المغرب أن الله حماه من فرق المبتدعة، كالمعتزلة، والرافضة، والجبرية[2]، كما يعرّض بمذهب محمد بن تومرت عندما تعرض لشيوخه ورحلته في طلب العلم حيث قال: «. . وذهب إلى رأيهم في تأويل المتشابه من الآيات، والأحاديث، بعد أن كان أهل المغرب بمعزل عن أتباعهم في التأويل، والأخذ برأيهم فيه اقتداء بالسلف في ترك التأول، وإقرار المتشابهات، كما جاءت، فمنع أهل المغرب من ذلك وحملهم على القول بالتأويل، والأخذ بمذاهب الأشعرية في كافة العقائد، وأعلن بإمامتهم، ووجوب تقليدهم وألف العقائد على رأيهم مثل (المرشدة)[3] في التوحد، وكان من رأيه القول بعصمة الإمام عليّ رأي الإمامية من الشيعة، وألف في ذلك كتابه في الإمامة الذي افتتحه بقوله (أعز ما يطلب) وصار هذا المفتتح لقباً على ذلك الكتاب. . .»[4].

إن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي، لقناعته الراسخة بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية، ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي ﷺ، ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة، وأثر الإسلام في حياة البشر، والتعرف على بعض الحقائق في حياة البشر، ككون الإنسان يحتاج إلى التذكير، ولا بد من الصبر على المشاق لتحقيق الأهداف النبيلة.

(1) الدرر السنية، ص99.
(2) المصدر السابق نفسه، ص90.
(3) لقد ذكرت تفنيد عقائد المرشدة في كتابي: دولة الموحدين، ونقلت ما قاله ابن تيمية في الفتاوى.
(4) انظر: الدرر السنية، ص119.

ثالثاً - إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن:

تحدث ابن السنوسي في هذا الكتاب عن وجوب العمل بالحديث والقرآن الكريم، وقد صنفه في مقدمة ومقصد، وخاتمة، أما المقدمة، فقد بين فيها جلالة مقدار الأئمة، فقال: «اعلم أنه يجب على المسلمين، بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، وبالخصوص موالاة العلماء العاملين، الذين حازوا بوراثة الأنبياء كل فخر، وصاروا نجوم هدى يقتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وأجمع العلماء على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة بعد بعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين؛ فعلماؤهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول في أمته والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وقاموا به، وبهم نطق وبأسراره نطقوا كل بحسبه، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أن أحداً من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامّاً يتعمد مخالفة الرسول ﷺ في شيء من سنته جل أو دق، كيف وهم محيوها والمتفقون اتفاقاً يقينيّاً على وجوب اتباعها وأنه يؤخذ من قول كل أحد ويترك لا قوله ﷺ»[1].

إن ابن السنوسي سار على منهج أهل السنة والجماعة في نظرته إلى علماء الأمة قال الطحاوي - رحمه الله -: «وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين، أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر، لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

ثم اعتذر للعلماء الذين خالفوا ما صح عن النبي ﷺ، وقال لا بد أن لهم عذراً، وجماع الأعذار ثلاثة:

1 - عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

2 - عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول ترجع إلى عشرة أسباب هي: عدم بلوغ الحديث، عدم ثبوته، وضعفه بالأسباب المعروفة من فن مصطلح الحديث، أو اشتراط ما لا يشترط غيره، أو عدم الدلالة منه، أو عدم اعتبارها، أو معارضتها بما يدل على أنها غير مرادة، أو معارضة الحديث بما يدل على ضعفه أو نسخه أو تأويله بما يصلح كونه معارضاً أو بما ليس من جنس المعارض، وشرع ابن السنوسي في ضرب الأمثلة من حياة الرسول ﷺ، واجتهادات الصحابة الكرام[2] ثم تحدث عن إمكانية أن يقع العلماء والفقهاء والقضاة وكذلك أعيان العلماء في الأخطاء المخالفة للسنة، فقال: «..فإنا لا نعتقد عصمة القوم بل نجوز عليهم الذنوب ونرجو لهم مع ذلك أعلى الدرجات لما اختصهم الله به من الأعمال الصالحة والأحوال السنية وليسوا بأعلى درجة من الصحابة التي كانت بينهم وغيرها، ويؤيد ذلك تحذير سلف الأمة من الصحابة، والتابعين، وتابعيهم ولا سيما الأئمة الأربعة من مخالفة الحديث وحضهم على

(1) انظر: إيقاظ الوسنان، ص12.

(2) انظر: إيقاظ الوسنان، ص12 إلى 22.

وجوب العمل به مع مخالفة (رأي كائن من كان)[1] واستدل بأقوال بعض الصحابة في هذا المعنى منها:

- عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال: (تمتع رسول الله ﷺ) فقال عروة: (نهى أبو بكر وعمر عن المتعة)، فقال: أقول: قال رسول الله ﷺ، ويقولون: قال أبو بكر وعمر (يوشك أن ينزل عليهم حجارة من السماء) وذكر أقوالاً للصحابة في هذا المعنى ثم بين أن حافظ المغرب ابن عبد البر وصلها في مؤلفاته بأسانيد جيدة حذفها ابن السنوسي من باب الاختصار، وذكر أقوال الأئمة الأربعة وبين أن قولهم إذا خالفه سنة الرسول، فهو مردود ومن ذلك:

- قيل لأبي حنيفة رضي الله عنه: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه قال: اتركوا قولي لكتاب الله، فقيل: إذا كان خبر رسول الله يخالفه فقال: اتركوا قولي لخبر الرسول فقيل: إذا كان قول الصحابي يخالفه قال: اتركوا قولي لقول الصحابي[2].

- قال مالك بن أنس: «إنما أنا بشر أخطىء وأصيب، فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه»[3].

- وأما الشافعي فسأله رجل عن مسألة، فقال: يروى عن النبي ﷺ أنه قال (كذا وكذا) فقال له السائل: يا أبا عبد الله أتقول بهذا؟ فارتعد الشافعي واصفر وحال لونه وقال: «ويحك وأي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا رويت عن رسول الله شيئاً ولم أقل نعم على الرأس والعين نعم على الرأس والعين، قال وسمعته يقول: ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزب عنه، فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل وفيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت فالقول ما قال رسول الله ﷺ وهو قولي»[4].

إن ابن السنوسي من خلال بحثه النزيه خرج بنتيجة مفادها أن ما خالف الكتاب والسنة، والإجماع من أقوال المجتهدين وآرائهم ليس مذهباً لهم، ويتعين على المتمسكين بمذاهبهم أن يعتنوا بالكتاب والسنة وأقوال العلماء ليعلموا بذلك ما هو مذهب لإمامهم خلاف ما لهج به المتأخرون من فقهاء المذاهب الأربعة من اقتصارهم على المختصرات الخالية من الدليل، وإعراضهم كل الإعراض عن كتب الحديث، وأصول الحديث، والفقه؛ فهم على هذا أجهل الناس بمذاهب أئمتهم[5].

---

(1) انظر: إيقاظ الوسنان، ص23.
(2) المصدر السابق نفسه.
(3) المصدر السابق نفسه، ص24.
(4) المصدر السابق نفسه، ص25.
(5) انظر: المصدر السابق نفسه، ص27.

ونقل قولاً للإمام أحمد، قال: قال ناصر السنة الإمام أحمد بن حنبل لأبي داود وقد سأله أيتبع الأوزاعي أم مالكاً قال: «لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ به» وذكر أن الرجل مخير في التابعين، وقد فرق ﷺ بين التقليد والاتباع فقال أبو داود: سمعته يقول: الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه ثم هو فيمن بعد من التابعين مخير، وقال لأبي داود: لا تقلدني ولا تقلد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا، وقال: من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال[1].

إن ابن السنوسي في كتابه «إيقاظ الوسنان» حارب التقليد الأعمى والتعصب، لأنه رأى أن ذلك من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهم العوامل التي أدت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، وفشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب والسنة المطهرة.

إن التقليد الأعمى والتعصب يؤديان إلى مهاوي الردى، ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدان عن اتباع النور والهدى، فتكون نتيجته تخبطاً وانتكاساً في الدنيا، وهلاكاً وخسراناً في الآخرة[2].

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية، لا سيما في العصور المتأخرة فأصبح هو الأساسي والأصل، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة[3].

لقد حارب ابن السنوسي التقليد والتعصب ورأى أن تلك الخطوة مهمة للأخذ بأسباب النهوض.

لقد تعرض ابن السنوسي في كتابه إيقاظ الوسنان، لمن أعمته العصبية عن الحق وزعم: «أن الكتاب والسنة مشتركان بين اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي منحصرة في مقلدي الأربعة»[4].

وناقش من قال بذلك القول وطرح عليه أسئلة منها: ما هو رأيه في من تمسك بالكتاب والسنة من أصحاب القرون المفضلة الثلاثة؟ فإنهم ما قلدوا الأربعة حتى يخرجهم الاستثناء عن الحكم بما قبله ويرد على أصحاب ذلك الزعم بقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: 103] ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: 105] ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: 213].

(1) انظر: إيقاظ الوسنان، ص29.
(2) انظر تفسير ابن كثير (2/ 213).
(3) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم، لعلي محمد الصلابي، ص251.
(4) انظر: إيقاظ الوسنان، ص31.

وفسر حبل الله بكتابه، واستدل بأحاديث شريفة، وبين أن الفرقة الناجية ما كانت على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه[1]. وقال: فإن من توهم أن مذاهب الأئمة الأربعة هي ما كان عليه وأصحابه، كان ملتزماً أن كل ما خالفهم من الصحابة ومن بعدهم، وأصحاب المذاهب المشهورة مخطىء في جميع ما خالفهم فيه، وهم المصيبون في كل خلاف، فانظر هل يستند هذا إلى نقل أو يقبله عقل[2]؟.

وردّ على من كفر مسلماً بشبهة، وقال: «وأعجب من هذا كله التكفير المرتب على الشبهة التي ستراها في عبث[3] الحق غثاء دون مبالاة بقول الصادق ﷺ: **«من كفر مسلماً فقد كفر»**، وبقوله: **«إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»** وذكر أقوال العلماء فقال: قال الرافعي في العزيز نقلاً عن التتمة: فإنه إذا قال لمسلم يا كافر بلا تأويل كفر، لأنه سمى الإسلام كفراً، ومثله للنووي في الروضة نقلاً عن المتولي، واعتمد ذلك المتأخرون كابن الرفعة، والقمولي والتتائي والأسنوي والأذرعي، وأبي زرعة، وصاحب الأنوار، وشارح الأنوار وغيرهم، جزموا به من غير عذر ولم ينفرد المتوي بذلك بل سبقه إليه ووافقه عليه جمع من الأصحاب منهم: الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني، والحليمي، والشيخ نصر المقدسي، والغزالي، وابن دقيق العيد، بل قضية كلام هؤلاء أنه لا فرق بين أن يؤول أو لا كما تدل عليه عباراتهم التي ذكرها عنهم العلامة ابن حجر في الأعلام، وقال فيه ما نصه: ووقع في الحديث روايات لا بأس بالإشارة إليها فقد روى مسلم: **«إذا كفّر المسلم أخاه فقد باء بها أحدهما»** وفي رواية له **«أيما رجل قال لأخيه كافر فقد باء بهما أحدهما إن كان كما قال وإلا رجعت عليه»**، وفي رواية أيضاً **«ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر ومن دعا رجلاً الكفر أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه»** وفي رواية أبي عوانة: **«فإن كان كما قال وإلا باء بالكفر»**، وفي رواية **«إذا قال لأخيه يا كافر، فقد وجب الكفر على أحدهما»** ومعنى كفّر الرجل أخاه وصف بالكفر ونسبه إليه في خبر كرأيت كافراً أو نداء كيا كافر، أو اعتقاده الكفر فيه، كاعتقاد الخوارج كفر المؤمنين بالذنوب، وليس من ذلك تكفير جماعة من أهل الأهواء لما قام عندهم من الدليل على ذلك، ومعنى باء بها أحدهما: رجع بكلمة الكفر) انتهى من الأعلام بإيجاز، وذكر فيها وجوهاً في تأويل الحديث إلى أن قال: «الثالث أنه محمول على الخوارج المكفرين للمؤمنين، وهذا نقله القاضي عياض وهو ضعيف لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون، والمحققون، إن الخوارج لا يكفّرون كسائر أهل البدع، . . . . وفي الدرة البهية في جواب سؤال عمن كفّر مسلماً بنحو هذا ما نصه، مع تغيير يسير في اللفظ: لم يدر هذا القائل مقدار ما قال،

(1)و(2) إيقاظ الوسنان، ص32.

(3) ربما في ميزان الحق.

ولم يتنبه لما يلزمه في هذا الضلال من الوبال وقد ورد «**إذا قال الشخص للشخص يا كافر فقد باء بها أحدهما**» ثم تعجب منه كيف يتجرأ عى تكفير المسلمين بما ذكر فكأنه يريد قصر الإسلام على نفسه، وأنه ليس لمحمد ﷺ أمة ناجية غيره وغير من وافقه على ما قال، وليته اعتبر بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء:94] وقد تحرزت الأمة قديماً وحديثاً من تكفير المسلم وحذروا من المبادرة فيه مهما أمكن، فقال حجة الإسلام الغزالي: الذي ينبغي أن يميل إليه المحصل الاحتراز من التكفير مهما وجد إليه سبيلاً، فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله خطأ والخطأ في ترك الكافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم.... وقد قيل لمالك: أيكفر أهل الأهواء؟ فقال: هم من الكفر فروا، وقد سئل تقي الدين السبكي رحمه الله: عن حكم تكفير غلاة المبتدعين فقال: اعلم أيها السائل أن كل من خاف من الله عز وجل استعظم القول بالتكفير لمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، إذ التكفير أمر هائل عظيم الخطر لأن من كفّر شخصاً، فكأنه أخبر أن عاقبته في الآخرة الخلود في النار أبد الآبدين، وأنه في الدنيا مباح الدم والمال، ولا يمكن من نكاح مسلمة ولا تجري أحكام المسلمين لا في حياته ولا بعد مماته، والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم امرىء مسلم، وفي الحديث: «**لأن يخطىء الإمام في العفو أحب إلى الله من أن يخطىء في العقوبة**»، فما بقي الحكم بالتكفير إلا لمن صرح بالكفر واختاره ديناً وجحد الشهادة، وخرج من دين الإسلام جملة[1].

وذكر ابن السنوسي حكاية لطيفة تدل على أبعاد عميقة لفهم قضية التكفير وهي: أن شخصاً بمصر وقع في عبارة موهمة للتكفير فأفتى علماء مصر بتكفيره، فلما أراد قتله قال السلطان: هل بقي أحد من العلماء لم يحضر قالوا نعم (الشيخ جلال الدين المحلى شارح المنهاج)، فأرسل إليه السلطان، فحضر فوجد الرجل في الحديد بين يدي السلطان، فقال الشيخ: مال هذا؟ فقالوا: كفر، فقال: ما مستند من أفتى بتكفيره، فبادر الشيخ صالح البلقيني، وقال: قد أفتى والدي شيخ الإسلام الشيخ سراج الدين في مثل ذلك بالتكفير، فقال: يا ولدي أتريد أن تقتل مسلماً موحداً يحب الله ورسوله لفتوى أبيك؟ حلوا عنه الحديد، فجردوه وأخذ الشيخ جلال الدين بيده وخرج والسلطان ينظر، فما تجرأ أحد يتكلم[2].

ثم بعد ذلك دخل ابن السنوسي في الباب الأول، وتحدث فيه على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، وبين أن دلالة الكتاب والسنة واحدة، وذكر أدلة وجوب اتباعهما، وتقديمهما على رأي كل مجتهد، وتحدث عن عمل الأصوليين، والمحدثين، والفقهاء بالحديث، وطريقة

(1)و(2) انظر: إيقاظ الوسنان، ص37.

كل قوم، أما في الباب الثاني فبين حقيقة الاجتهاد وأنواعه، وفيما يشترط في المجتهد من الشروط الوصفية والإيقاعية، ووضح حرمة الاجتهاد مع النص في كل ما عمّ وخص، ورد زعم من قال بانقطاع ودعوا أنه إجماع، وذكر الأدلة الشرعية التي تذم التقليد المذموم، وفنّد دعوة القائلين في انحصار التقليد للأئمة الأربعة.

إن دعوة ابن السنوسي لفتح باب الاجتهاد للقادرين عليه، ومحاربة التقليد المذموم، تعني أنه بذلك حارب أسباب الفرقة الداخلية، كالجهل، واتباع الهوى، والابتداع، فالجهل من أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات، وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

إن ابن السنوسي دعا الناس، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبين في كتابه النفيس إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، أن أي حكم لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحي الله، فإنه باطل مرفوض، وعلاج مرض الجهل بالدواء الناجع ألا وهو العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إن من أخطر الأمور أن يكون على مقدمة الحركات الإسلامية قيادة تجهل كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولا تعطي للعلماء أي وزن أو اهتمام، بل تعمل على تهميشهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية، والفكرية، والسلوكية، ومن المعلوم أن ما سوى الشرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم[1].

إن كتاب ابن السنوسي إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن يدل الباحث على تأثره بالمنهج السلفي، ويظهر فيه تأثره بأفكار ابن تيمية الذي نادى قبله بستة قرون بالتمسك بالكتاب والسنة، وحارب التقليد الأعمى والتعصب المذهبي، ويبدو أن اطلاعه على كتب ابن تيمية كان في زمن إقامته في الحجاز، كما تعرّف على آرائه من خلال احتكاكه بدعاة السلفية، من تلاميذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذين تبنوا كتب ابن تيمية وابن القيم، وكتب أهل السنة والجماعة عموماً، ولو قارن الباحث بين كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية، وإيقاظ الوسنان لوجد تأثر الثاني بالأول ظاهر العيان.

إن ابن السنوسي لم يكتفِ في دعوته لفتح باب الاجتهاد ومحاربة التقليد بالقول، ولكنه قرن قوله بالعمل، حيث خالف مذهبه المالكي في عدة مسائل منها: رفع اليدين في الصلاة،

(1) انظر: فقه التمكين، ص245.

حكم القبض، حكم السكتات الثلاث، حكم الاستعاذة، حكم البسملة للفاتحة والسور، حكم التأمين، حكم التكبير لقيام الثالثة، حكم السلام، والخروج من الصلاة، حكم القنوت، ورفع اليدين فيه حال الدعاء، حكم تطويل الصلاة، وتقصيرها المشروعين[1]، والمتطلع على كتابه المسائل العشر يرى قوته في إقامة الحجة على ما ذهب إليه من خلال أحاديث الرسول ﷺ وأقوال العلماء، ويذكر أدلته التي خلف فيها المذهب المالكي.

لقد نال ابن السنوسي رضى علماء المسلمين بسبب اجتهاده في الدين وعدم تقيده بمذهب من المذاهب، حيث جعل رائده العمل بالكتاب والسنة ولم يقدم عليهما أقوال العلماء والفقهاء، وبسبب دعوته المخلصة التي أثرت في قبائل ليبيا، والصحراء الكبرى وإفريقيا، والتي أصبحت فيما بعد كتائب للجهاد في سبيل الله تعالى[2].

إن كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن يوضح لنا معالم سلفية سنية في منهج الحركة السنوسية.

كانت خاتمة كتاب إيقاظ الوسنان في سنن أهل الله وسبيل عملهم فبين فيها مجموعة من الأصول والقواعد في علم التصوف منها:

* إن حكم أهل السلوك في هذا حكم المحدثين في العقائد والفروع وهي عقيدة السلف[3].

* (الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ)[4]، ونسب هذا القول للجنيد وقال أيضاً: علمنا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يستمع الحديث ويجالس الفقهاء ويأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من يتبعه.

وقال سهل بن عبد الله التستري: بنيت أصولنا على ستة أشياء: كتاب الله وسنة رسوله وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام وأداء الحقوق[5].

وقال أبو عثمان الجبري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى نطق بالبدعة[6].

---

(1) انظر: المسائل العشر، ص5 إلى 74.
(2) انظر: السيد محمد رشيد رضا، محمد درنيقة، ص203.
(3) انظر: إيقاظ الوسنان، ص128.
(4) انظر: المصدر السابق، ص130.
(5)و(6) انظر: إيقاظ الوسنان، ص130.

وقال أبو العباس ابن عطاء الله: من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة[1].

ثم بين ابن السنوسي أنه لا مقام أشرف من متابعة الحبيب ﷺ في الأفعال والأقوال والأوامر والأخلاق[2].

وبين خطورة الهوى واستدل بقول ابن عطاء الله في حكمه: لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك[3].

وقال أيضاً: «تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال» وقال بعضهم «نحت الجبال بالأظافر أيسر من زوال الهوى إذا تمكن»[4] قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: 23].

وبين ابن السنوسي: أن كل طريق لم يمشِ فيه الشارع ﷺ فهو ظلام ولا يكون أحد ممن يمشي فيه على يقين من السلامة وعدم العطب لأنه ﷺ هو الإمام وهو النور، والمأموم إذا خرج عن اتباع إمامه وتعد ما حده له مشى في الظلام بقدر بعده عن شعاع نور إمامه، ولهذا تجد كلام أئمة المذاهب كلهم نوراً صرفاً لا إشكال فيه لقربهم من رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم ولهذا المعنى أشار ﷺ بقوله: «رحم الله امرأً سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها» يعني حرفاً بحرف من غير زيادة على ما شرعته أو نقص عنه فسّر ﷺ بأن الابتداع هو الزيادة على التشريع[5].

لقد كان التصوف عند ابن السنوسي وسيلة لتربية النفس وتزكيتها، والسمو بها نحو المعالي، وكان تصوفه له مقياس دقيق (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ)، فاهتم ابن السنوسي بالعلم الرباني، وتربية النفس، وهذا يظهر من خلال دراسة كتابه إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، وقد ختم ذلك الكتاب بهذه العبارات الجملة (والله الهادي إلى الصواب لا رب غيره لا خير إلا خيره عليه توكلت وإليه أنبت وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين نالوا ذرى المجد بصحبته، وبلغوا كمال الكرم والشرف برؤيته نسأل الله ﷻ أن يحشرنا في وفدهم إليه وأن ينيلنا مما أعده لهم لديه، إنه كريم رحيم حليم عظيم)[6].

من خلال ما سبق نرى أن ابن السنوسي كان جريئاً في طرح أفكاره التي كانت على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى عصره الذي تجمد فيه الفكر، وتأخر فيه العلم، وابتعد الناس عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكانت دعوته للتمسك بالكتاب والسنة مبنية على علم غزير، وحجج دامغة، وبراهين ساطعة، وكان متأدباً غاية التأدب مع العلماء، فهو لا ينكر فضل الأئمة

(1 - 4) المصدر السابق نفسه، ص131.

(5) إيقاظ الوسنان، ص132، 133.

(6) انظر: إيقاظ الوسنان، ص139.

ولكنه يأبى الوقوف عند حدود ما قالوه ما دام بالإمكان الرجوع إلى النبع والاطلاع على أحاديث قد لا يكونون وصلوا إليها، وما دام بالإمكان التفكير والاستنباط مع ملاحظة تغير الظروف[1].

كان ابن السنوسي المؤرخ يمتاز بغزارة معلوماته، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش، ومع هذا ساند الدولة العثمانية حرصاً على وحدة الأمة، ودحر أعدائها، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث.

كان ابن السنوسي فقيهاً متصوفاً، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجاً تربوياً لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية مسترشد بكتاب الله وسنة خير البرية.

(5) انظر: الحركة السنوسية، ص151.

obeikandl.com

المبحث الثالث

من أهم صفات ابن السنوسي

إن ابن السنوسي في سيرته العطرة اتصف بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق، والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ، ونحاول في هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها شخصيته الفذة.

أولاً - الحلم:

إن الحلم ركن من أركان الحكمة، وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155].

وقد بلغ ﷺ في حلمه وعفوه الغاية المثالية، وكان ابن السنوسي شديد الاقتداء في كل أحواله وأقواله، وأفعاله برسول الله ﷺ، وكانت له مواقف كثيرة تدل على حلمه، وضبطه لنفسه، منها: ما ذكره أحمد الشريف في رحلته ﷺ أن رجلاً من الطريقة الدرقاوية، أساء الأدب مع ابن السنوسي، أثناء نزوله بسيوه، وقال لابن السنوسي: نحن نكسر رؤوس الرجال، فسمع بذلك أصحاب السنوسي وأرادوا أذيته (يعني الرجل) فقال لهم الأستاذ: اتركوه عنكم واختفى الرجل خوفاً من الإخوان[1].

ثانياً - العفو والصفح عند المقدرة:

ومن الصفات التي ظهرت في شخصية ابن السنوسي: حبه للعفو والصفح، فعندما نشب خلاف حول أملاكه مع بني عمه في الجزائر، وطالب أبناء عمه بحقوقه، فامتنعوا ورفع عليهم قضية وكسبها، ولم يدفع أولاد عمه المستحقات التي له، وقامت الحكومة بسجنهم، تنازل عن طلبه[2]، وعندما ناصبه العداء بعض العلماء تعصباً واندفاعاً وجموداً، واتهموه بالكفر، والمروق عن الإسلام، فقال ابن السنوسي عمن تولى الهجوم عليه: عفى الله عن الشيخ عليش سامحه الله[3].

---

(1) انظر: الحركة السنوسية، ص155، 156.

(2) المصدر السابق نفسه، ص58.

(3) انظر: السنوسي الكبير، ص26.

ثالثاً - زهده:

كان ابن السنوسي زاهداً في الدنيا، راغباً في الآخرة، حريصاً على دعوة الناس للحق، ولم يحرص على جمع الأموال وحطام الدنيا الفاني وله أشعار تدل على زهده، وعلى حقيقة نفسه المنصرفة إلى الله، المقبلة على متاع الروح، الزاهدة في لذائذ الدنيا ومتعها، وذلك إذ يقول:

إلا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع ... علينا ولا اللذات إلا العطائب
وما لذة الأولاد والمال والمنى ... لدينا ولا آمال لا المصائب
فلا تكتحل عيناك يوماً بعبرة ... على ذاهب منها فإنك ذاهب

ومن أشعاره في التعبير عن زهده في الدنيا:

وهبني علمت الكيمياء ونلتها ... وأتقنتها صبغاً وأتقنتها صنعا
ولخصت تسيير الكواكب كلها ... ببحثي وتدقيقي ونلت بها مسعى
وملكت أموال البرايا بأسرها ... وجالت يدي في أصفهان إلى صنعا
أليس مصيري بعد ذلك كله ... إلى تحت هذا التراب في حالة شنعا
فقل للذي يمسي ويصبح همه ... لغير رضا الرحمن: يا خيبة المسعى[1]

رابعاً - تواضعه:

ومن الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي صفة التواضع، فعندما دخل مكة، كان يسقي الناس ماء زمزم واتخذها حرفة وصار ملازماً لها فترة من الوقت، قربة إلى الله[2]، وقد ذكر ابن علي في فوائده الجلية أن ابن السنوسي كان ناذراً لله تعالى وقف نفسه على خدمة الكعبة المشرفة، تقرباً لى الله تعالى وتواضعاً، ومجاهدة لنفسه، وكان عازماً على المضي، غير أن الله تعالى رفع قدره وهيأه لما هو أعم وأنفع، ومن تواضع لله رفعه الله[3] وقام بالوفاء بنذره واشترك في خدمة الحرم بقدر ما يسر الله له[4].

لقد كان ابن السنوسي غاية في التواضع، وفي رسالة من رسائله إلى أحد أخوانه تظهر هذه الصفة جلية حيث يقول: والذي أوصي به نفسي وإخواني هو تقوى الله، وصية الله في الذين

(1) انظر: دراسات وصور للحاجري، ص303.
(2) انظر: السنوسي الكبير، ص11.
(3) انظر: الفوائد الجليلة (1/ 20).
(4) المصدر السابق نفسه، (1/ 21).

خلوا من قبل ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: 131]، باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، والوقوف عند حدوده بإعمار الظواهر بالمجاهدات، وإعمار البواطن بالمشاهدات، . . .»[1].

فنلاحظ أن ابن السنوسي قرن نفسه بإخوانه مما يدل على تواضعه وجعل نفسه كأي واحد منهم، ومقامه منهم أوضح من الشمس في رابعة النهار.

خامساً - العفة والترفع عما في أيدي الناس:

من الصفات البارزة في شخصية ابن السنوسي العفة والترفع عما في أيدي الغير.

فعندما حجت إلى مكة والدة عباس باشا حفيد محمد علي باشا حاكم مصر، وسمعت بتقوى ابن السنوسي وولايته ذهبت لزيارته في الزاوية فلم تجده، وجدت الشيخ عبد الله التواتي، فسألته: أنت الشيخ؟ فأجابها: بالنفي، وأخبرها أن الشيخ في الطائف؛ فقصدت الطائف وطلبت مقابلته بإلحاح، فقابلها على مضض، فحدثته عن ابنها عباس وكيف يضطهده عمه إبراهيم باشا، وكيف أنها تخشى عليه من عمه؛ ثم سألته أن يدعو لابنها فدعا له بالتوفيق؛ فرغبت هي أن تقدم لابن السنوسي هدية فمدت له صرة مملوءة ذهباً فرفضها، فلما ألحت أخبرها أنه لا يأخذ شيئاً وأن بإمكانها أن تعرض الصرة على التواتي في زاوية أبي قبيس؛ فعادت إلى مكة وقدمتها للتواتي؛ فرفضها حيث وصلته تعليمات من شيخه بالرفض، ولما ألحت طلب منها أن توزعها على الفقراء لأن أتباع الزاوية ليسوا بحاجة، وعندما عادت إلى مصر توفي محمد علي وإبراهيم في سنة واحدة، فخلا كرسي الولاية واحتله ولدها[2]، وقد ربى ابن السنوسي أتباعه على العفة والترفع عن ما في أيدي الناس، وقد ذكرت قصة مرتضى فركاش وحسين الغرياني مع البدو الذين أهدوا إليهم إبلاً وبقراً وغنماً، وكيف ردها ابن السنوسي وبين لهم: أن مهمة بعثاتنا تنحصر في تلقين قواعد الدين، والتعريف به، لا لأجل تقبل الهدايا والهبات والتبرعات، وطلب منهم أن لا يرهقوا البدو حتى بتكاليف الضيف، وكان يزود الدعاة بجميع ما يلزمهم[3] وكان يحث إخوانه من العلماء والشيوخ والدعاة، أن يتعلقوا بالله وحده حيث يقول: «. . .وورد من أحب شيئاً كان له عبداً، تعس عبد الدينار، وتعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، وفي الحكم ما أحببت

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص91.
(2) انظر: الحركة السنوسية، ص97.
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص87.

شيئاً إلا وكنت له عبداً، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً، وإياك أن تطلب على عملك جزاء آجلاً أو عاجلاً، فيكون درى يقينك في الله آفلاً، أو تشهد أن لك في ذلك العمل أثر، فتشرك بخالق القوى والقدر، فإن الإخلاص له مراتب، فرتبة إخلاص العوام عدم طلب الثناء والسمعة، ورتبة إخلاص الخواص عدم طلب الجزاء الآجل أو المقامات المرتفعة، ورتبة إخلاص خواص الخواص التبري من الحول والقوة. . .)[1].

لقد كان ابن السنوسي يحذر من الانكسار في حب الدراهم والدينار، وكان يريد من إخوانه أن يتجردوا في أعمالهم ويجعلوها لله وحده.

سادساً - قوة الحجة، والقدرة على الإقناع والمناظرة:

عندما وجه علي عشقر والي طرابلس اتهاماته لابن السنوسي، استطاع ابن السنوسي أن يبدد جميع الاتهامات، وطلب من الوالي العثماني أن يجمعه مع العلماء في طرابلس، وتألف مجلس الوالي من كبار العلماء منهم: أحمد المقرحي، وكان من أبرز العلماء وأقربهم مكانة عند الوالي العثماني، والشيخ القزيري البنغازي، وأخذ أعضاء المجلس العلمي يناقشون ابن السنوسي، وجاء رده حاسماً، وشاملاً، بل ومحرجاً لبعض العلماء، فأيقنوا أنهم أمام محيط من العلوم الراسخة، والحجج الدامغة، والبراهين الساطعة، ومن ذلك الحين انضم الشيخ أحمد المقرحي، والشيخ علي القزيري إلى الإخوان وتجردوا لخدمة الحركة السنوسية، وانضم أيضاً الوالي علي عشقر وأصبح من أتباع الطريقة السنوسية[2].

وكان من أساليبه في الإقناع: ضرب الأمثلة العلمية الحية، وكان ذات مرة في مجلسه بمكة يحف به بعض الزوار، فدخل شخص أجنبي له مظهره الملفت للنظر، وحيا الحاضرين ثم وجه سؤالاً علمياً معقداً إلى ابن السنوسي، كأنه يريد منه التعجيز، وكان ابن السنوسي مشغولاً بعمل باشره، وطلب السائل سرعة الجواب بصورة لفتت نظر الحاضرين، ففهم ابن السنوسي السائل وطمأنه بسرعة الإجابة، واستدعى تلميذه عبد الله التواتي وكان يقوم بنصيبه في العمل، وكان يومها يقوم بـ(عجن الطين) أثناء القيام بعملية بناء زاوية مكة، وكان يرتدي لباس العمال، ولما استدعاه ابن السنوسي جاء مسرعاً بملابس العمل وقد علق الطين الذي كان يقوم بعجنه في رجليه وهندامه، فقال له ابن السنوسي: أجب سائلنا هذا عن سؤاله، كذا وكذا، واسترسل عبد الله في الإجابة الشاملة من ذاكرته، ولم يترك ثغرة في السؤال، وجاء بمختلف الأقوال في المسألة ثم ردها إلى حقيقتها، فتعجب الناس، وتحير السائل ثم اقتنع وقال: لا يصح أن يكون

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص89.

(2) المصدر السابق نفسه: ص104.

مثل هذا الرجل الفاضل عاملاً وبهذه الصورة، فمن حقه أن يتصدر المجالس، فأجابه ابن السنوسي بقوله: إن جماعتنا كلهم على هذا الغرار، ومن لم يصل منهم إلى هذا المستوى، فهو في طريقه إليه وهذا العمل الذي تعيبه عليهم لم يكن معيباً لهم أو لينقص من شأنهم وقيمتهم، إنهم يعملون كما يأمر الإسلام لرفعة شأن المسلمين، وإننا نعدهم لمجد الإسلام، ولرفعة شأنه، فاعتذر السائل على ما ظهر منه[1].

سابعاً - شعوره بالمسئولية:

كان ابن السنوسي يستشعر مسئوليته وواجبه المنوط به نحو عباد الله والأمانة التي تحملها لهدايتهم وإرشادهم، فكان ذلك دافعاً له للقيام بواجبه وأداء رسالته، وكانت هذه الصفة واضحة في شخصيته، وكان يستشعر بأنه مأمور بواجب الدعوة إلى الله، وفي خطواته التي سار عليها، وشعوره بهذه الصفة، جعلته لا يعرف المستحيل، وكان لا يأمر بأمر إلا وقد نفذه على نفسه وأحب الناس إليه، وأقربهم منه[2]، وكان يقول لإخوانه: ليس هناك على همة العاملين ما يسمونه مستحيلاً إذا ما أخلصوا في عملهم وصدقت عزيمتهم، واتخذوا من القرآن الكريم دليلاً، وعرفوا معانيه وتدبروها ما يجب أن يتدبروها[3].

ثامناً - حليته:

كان أزهر اللون مدور الوجه أقنى الأنف خفيف العارضين واللحية، أشقر الشعر معتدل القامة، رقيق الحاجبين أزجهما، واسع الثغر، فصيح اللسان، جهوري الصوت مع رقة فيه، واسع العينين وفي إحداهما انكسار لا يكاد يظهر، طويل العنق، عريض الصدر والمنكبين من رآه مرة هابه وإذا خالطه وكلمه ألفه وأحبه[4].

تاسعاً - هوايته:

كان يهوى اقتناء الخيل، ويحسن ركوبها إلى درجة عالية من المهارة، وكان يستطيع التقاط بعض الشيء من الأرض من على ظهر الجواد في أثناء عدوه، كما كان يستطيع الوقوف على رجليه، وعلى رأسه على ظهر الجواد أثناء عدوه، ويستطيع إصابة ما يريده من المرمى، وكان يشجع أتباعه وإخوانه على تعلم الفروسية ويقول لهم: إن ذلك من صميم السنّة[5].

---

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص98، 99.
(2) انظر: برقة العربية أمس واليوم، ص180.
(3) انظر: السنوسي الكبير، ص117.
(4) انظر: الفوائد الجليلة (1/ 89).
(5) انظر: المصدر السابق.

وفاته:

كان ابن السنوسي يشعر بالمرض منذ مدة، وكان يصارعه بالصبر، وقوة العزيمة، فلم يركن للراحة، ويخضع لوطأة المرض، وشرع في إتمام ما عزم على إقامته، وحاول أن يتغلب على المتاعب والأمراض وكان يمهد الأمور لتولي ابنه محمد المهدي أمر زعامة الحركة السنوسية، ونجح في ذلك، وأقنع الإخوان وزعماء القبائل بذلك، واشتد عليه المرض في شهر شعبان 1275 هـ حتى صار يغيب عن إحساسه، وكان يقول: «أهل الله حملونا شيئاً كثيراً لو نزل على الجبال الراسيات لما أطاقته»[1]، ثم ارتفع بعد ذلك المرض منتصف محرم عام ستة وسبعين ثم تزايد عليه الألم، والأسقام، وصار يغيب أحياناً، ويفيق أحياناً إلى أن دعاه مولاه يوم الأربعاء من صفر الخير بعد طلوع الشمس[2]، وهكذا انتقل إلى جوار ربه.

وقبل الدفن اجتمع الإخوان في المسجد يوم الخميس، وقام فيهم عمران بن بركة خطيباً فألقى كلمة قال فيها: «... حمداً لمن قضى على جميع العباد بالموت وسدد سهمه للإصابة في جميع الوقت، فلا حيف عن سلوك سبيله ولا مناص، ولا محيد عن الوقوع في شركه، ولا خلاص، فلم ينج منه أمير ولا وزير، ولا غني ولا فقير، ولا شريف، ولا وضيع، ولا دنيء ولا رفيع، حكم بذلك على سائر رسله وأنبيائه وأهل حضرته من أصفيائه وأوليائه، وعلى الموت نفسه بعد إبقاء المقادير بالموت فلا محيط عنه ولا فوت وجعله منة يفتدى بها من أسرار الأكدار وجُنة يتقى بها من سهام الاغترار، ....)[3] وبعد أن دفن ابن السنوسي رحمه الله، تولى أمر الحركة ابنه من بعده (محمد المهدي)، فقام بإرسال خبر وفاة ابن السنوسي إلى شيوخ الزوايا في مختلف الأقطار وكان فيها: (... إنه من عبد ربه سبحانه محمد المهدي ابن السيد محمد بن علي السنوسي الخطابي الحسني الإدريسي إلى الأجلاء والأبرار الأصفياء الأخيار أخينا السيد محمد بن إبراهيم الغماري وأخينا إسماعيل بن رمضان، وأخينا وهبة، وكافة إخواننا أهل مكة سلمهم الله آمين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ومغفرته، ومرضاته وبعد، فقد وصلتنا كتبكم التي أرسلت باسم الوالد رحمه الله تعالى وسقى ثراه وأكرم نزله ومثواه، وكنا قبل هذا أرسلنا إليكم كتبنا وأخبرناكم فيها بما قدره الله وقضاه وأبرمه في أزله وأمضاه ونسأله تعالى أن يجعلنا من عباده الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون» واستطرد محمد المهدي في رسالته إلى أن قال: «كونوا على ما كنتم عليه من الدلالة على الله تعالى بالحال وبالمقال وصابروا، ورابطوا وتواصوا بالصبر، واذكروا عباد الله فيه وجاهدوا في الله حق جهاده، وكونوا يداً واحدة على من سواكم، وفي الله إخواناً وعلى البر والتقوى أعواناً، ولا تعاونوا على الإثم

(1 - 3) انظر: الحركة السنوسية، ص124.

والعدوان وسلموا منا على كافة الإخوان والمحبين من أهل مكة والمعابد والوادي والطائف وغيرهم»[1].

وقد رثاه الشعراء وهذه قصيدة عبد الرحيم المحبوب يبكي فيها ابن السنوسي حيث يقول:

ما بال عينك لا بالنوم تكتحل ... ودمعها لا يزال اليوم ينهمل
كأنها سمات بالشوك أو كحلت ... من الغضي بشواظ كان يشتعل
تخالها مزنة قد لاح بارقها ... فاخضل الأرض منها صيب هطل
والوجه أسفع والأعضاء ناحلة ... والقلب في شراك الأحزان مختبل
والجنب إذ تدعه حال لمضطجع ... كان الوطأ له السعدان والأسل
تئن في لجج الأحلاك من نكد ... منه ترى راحة أن يحضر الأجل
أمن تذكر أوزاراً سفت لها ... أو زار بالطيف من تهوى ولم يصل
أم ذا لفقد حبيب كنت تألفه ... وازور دهرك أم قد خانك الأمل؟
يا لهف نفسي على ما كان مسكنهم ... قلبي وهم أن مضوا سفر به مهل
كانوا الغياث لملهوف ومتجعا ... للمجدين إذا ما مسهم محل
شدوا الرحال ولم يستأذنوا أحدا ... وضل شوقاً لم يبكيهم الطلل
تبكيهم السنة الغراء من عصر ... ما أن بمثلهم قد مسها ثكل
يبكيهم ما حوى (كشف الظنون) وما ... يروي (الجوامع) مع ما ساره المثل
مع ما روى (حجة الإسلام) من حكم ... وأعلن الشيخ من رمز له قفل
من (للصحاح) (وشمس العلم) بعدهمو ... أو (للشفاء) و(للقاموس) يحتفل
من (للجلالين) و(الكشاف) ينقذه ... (البحر) و(النهر) و(الأنوار) ينتخل؟
من (للعلوم) على أقصى تنوعها ... من (للحلوم) إذا أشفت بها العلل؟
من (للمكارم) و(الآثار) يؤثرها ... عن الجدود الألى سارت بهم مثل؟
والغور والنجد من أرض الحجاز وما ... ضاهي (قبيساً) بها من فقدهم عطل[2]

إلى أن قال:

فالصبر أولى وعند الله محتسب ... أن المصائب إن تعظم لها بدل
توارت الشمس عن عين الحسود بها ... أو ذاك رفق ببدر ناله الخجل

(1) انظر: السنوسي الكبير، ص138.
(2) انظر: المصدر السابق، ص132.

وذاك عام شروع الخطب قلت إذن ما بال عيناك لا بالنوم تكتحل[1]

وهذه قصيدة ألقاها شاعر ليبيا أحمد رفيق المهدوي عام 1956 م بمناسبة مرور مائة عام على وفاة ابن السنوسي:

خلدوا ذكرى إمام المصلحين سيد المجتهدين العارفين
الإمام، ابن السنوسي، الذي فاق صنف العلماء العاملين
عبقري قد تسامى للعلا بجلال العلم والدين المتين
وبإصلاح ترى آثاره لم تزل تهد على مر السنين
نشر الدين بعزم صارم وجهاد كجهاد المرسلين
وهدى قوماً على غير هدى بين جهل وضلال عائشين
في صحارى يلفح القيظ بها كشواظ النار فيها الساكنين
وبلاد في غمار مطبق بظلام البؤس، والغيم المشين
عمها ديناً ودنيا فغدا أهلها من علماء المسلمين!
وبنى فيها (زوايا) أصبحت منهلاً عذباً لورد الظامئين
ومنارات تشع العلم من قابس عن نور رب العالمين
بالتآليف التي من فيضها (سلسبيل) (المنهل) الصافي المعين
و(شفاء الصدر) من رين الهوى و(بإيقاظٍ لوسنان) مهين
وشرحٍ لعلوم وضحت ما عصى من مشكلات الأولين
بينت ما جاءنا عن جده من علوم، وأحاديث، ودين
هذه آثاره من علمه كلها تدعو إلى الحق اليقين[2]

هذا ما استطعت جمعه وتلخيصه عن ابن السنوسي ﷺ تعالى، وما أردت بالكتابة عن حياته إلا إحياء سير المصلحين، والدعاة العاملين، والعلماء الراسخين، لتعلم الأجيال الصاعدة أن لها تاريخاً عريقاً ضارباً في أعماق الزمن يزخر بأمجاد الإسلام، وأن ابن السنوسي ممن واصلوا نهج الصحابة والتابعين في الدعوة إلى الله، وأن سيرته ليست عنا ببعيدة، لعل هذه الصفحات المشرقة تصل إلى قلوب دعاة الإسلام في ليبيا، وفي الأمة، فيقتبسوا من سيرته ما يحثهم على مواصلة السير لدعوة الله، والجهاد في سبيله، وما أردت بذلك إلا وجه الله تعالى هو حسبي عليه توكلت وإليه أنبت، انتهيت من هذه الترجمة في العشر الأواخر من شهر رمضان،

(1) السنوسي الكبير، ص133.
(2) الملك إدريس عاهل ليبيا، تأليف دي كاندول، ص159، 160، أشرف على الترجمة محمد عبده غلبون.

فاستبشرت بذلك خيراً، وتذكرت رؤيا رأيتها عندما كنت في المعتقل السياسي بطرابلس الغرب عام 1983 م، حيث رأيت ابن السنوسي في منامي وقدم لي كأساً مملوءة بالحليب فشربته، فإني أحمد الله على أن وفقني لكتابة هذا الكتاب، والفضل لله وحده من قبل ومن بعد، وأختم هذا الكتاب بهذه الأبيات التي سليت بها نفسي، عندما حذرني بعض الأخوة من نشر ما يتعلق بأمجاد السنوسية، لأن ذلك يثير أعداءهم ضدي، وأنت لا حول لك ولا قوة، فأجبتهم ما أردت بكتابي إلا نصرة الإسلام، وقلت لهم بأن هذه الأمجاد ليست خاصة بالسنوسية بل هي لكل مسلم وتلوت قول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: 64].

أما الأبيات فهي:

لا تطلبن من غير ربك حاجة ... إن كنت بالرحمن ذا إيمانِ
ومن الذي يستبدل الضعفاء ... والفقراء والبخلاء بالرحمن
أو يشتري الظلمات بالأنوار أو ... يرضى يعود بأخسر الخسران
فوض إلى المعبود أمرك كله ... وافزع إلى المولى بغير توانِ
واقرع إذا نام الأنام وغلقوا ... أبوابهم لا بالنوال الهاني
باب الذي بسط اليدين بليله ... ونهاره لتدارك العصيان
ويداه مبسوطتان للإحسان ما ... قبضت يد خوف من النقصان
باب الذي إن لم تسله فضله ... يغضب فكيف يرد بالحرمان
باب المجيب إذا دعاه مرتج ... لاج إليه ماله من ثاني
باب الذي يغنيك عن زيد وعن ... عمرو وعن ثان وعن أعوان
باب الذي لا خير إلا عنده ... بيده كل مني وكل أمان
باب الذي يرجى لكل ملمة ... لعظائم الآلام والحدثان
الحي قيوم الخلائق كلها ... الواسع الرُحمى عظيم الشان

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

خلاصة القسم الأول

1 - أصيبت الدولة العثمانية في القرنين الماضيين بداء الأمم كالحسد والبغضاء، واستبداد الملوك، وخيانة الأمراء، وغشهم للأمة وإخلاد الشعب إلى الراحة، والدعة وكان شر ما أصيبت به الدولة الجمود في العلم، وفي صناعة الحرب، وفي تنظيم الجيوش.

2 - كانت الأحزاب العلمانية، والجمعيات السرية، والعصبيات القومية تنخر في كيان الدولة، فظهرت الدعوة إلى القومية الطورانية، والعربية، والكردية.... وبدأت الثورات تتفجر في البلدان، والحركات الانفصالية تتكاثر، والدول الأوروبية تدعمها وتستعد لتقسيم تركة الرجل المريض.

3 - أصبحت الأمة تعاني من الآثار التي ترتبت عن ابتعادها عن شرع الله، وأصيبت الناحية الاجتماعية بتفشي الجهل، والمظالم بين الناس، وصراع الأمراء، والولاة على حطام الدنيا الزائل، وأصبحت الأمة في ليل حالك، وظلام دامس.

4 - جمد المسلمون في علوم دينهم فليس لديهم إلا ترديد بعض الكتب الفقهية، والنحوية، والصرفية، ونحوها، وجمدوا على فقه المذاهب، وجل همهم التعمق في الحواشي، وحفظ المتون، دون القدرة على الاجتهاد.

5 - أصبح لكل مذهب من المذاهب الفقهية مفتياً وإماماً، وتعددت الجماعات في المسجد الواحد، كل ينتصر لمذهبه، وكل يصلي خلف إمام مذهبه، وبذلك يقف المسلمون لصلاة الجماعة وراء أكثر من إمام حسب المذاهب المتواجدة في ذلك المسجد.

6 - انتشر التصوف المنحرف في أرجاء البلاد الإسلامية، شرقها، وغربها، عربيها، وعجميها، وضاع مفهوم العبادة الصحيح، ومفهوم الولاء والبراء، وانحرفت الأمة عن كتاب ربها وسنة رسولها ﷺ.

7 - بدأت الدول الأوروبية تستقطع من العالم الإسلامي بلداناً كلما أتيحت لها الفرصة.

8 - اهتز العالم الإسلامي لاحتلال الصليبيين لأجزاء من الوطن الإسلامي اهتزازاً عنيفاً، كما تأثر باحتكاكه بالغرب، واطلاعه على تقدمه، من هذا التحدي نبعت حركات الإصلاح.

9 - تتابعت حركات الإصلاح في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني للقرن الثامن عشر، بتأثير عوامل عديدة منها: إحساس بعض العلماء الربانيين بسوء الأوضاع في العالم الإسلامي واحتلال أجزاء منه.

10 - قامت حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد، وكان الدافع لها إحساس مؤسسها بانحطاط المسلمين، وتأخرهم.

11 - تعد حركة الشيخ محمد عبد الوهاب البداية الحقيقية لما حدث في العالم الإسلامي من يقظة جاءت بعد سبات طويل، وما تمخض عنها من صحوة مباركة، ورجعة إلى الدين.

12 - ظهر الإمام محمد بن علي السنوسي بدعوته الإسلامية بعد وفاة محمد بن عبد الوهاب بعشرات السنين.

13 - ولد الإمام محمد بن علي السنوسي عام 1202 هـ صبيحة يوم الإثنين الموافق الثاني عشر من ربيع الأول عند طلوع الفجر، ولذلك سماه والده محمداً تيمناً باسم النبي ﷺ.

14 - بعد وفاة والده تولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته تنشئة صالحة، وكانت من فضليات أهل زمانها، ومتبحرة في العلوم، ومنقطعة للتدريس والوعظ.

15 - بعد وفاة عمته عام 1209 هـ بسبب الطاعون تولى تربيته ابن عمه الشيخ محمد السنوسي الذي تولاه بعد وفاة عمته وأتم على ابن عمه حفظ القرآن الكريم برواياته السبع مع علم رسم الخط للمصحف، والضبط، وقرأ عليه الرسالات الآتية: مورد الظمآن، المصابيح، العقيلية، الندى، الجزرية، الهداية المرضية في القراءة المكية، حرر الأماني للشاطبي.

16 - بعد وفاة ابن عمه 1219 هـ، جلس للأخذ من علماء مستغانم لمدة سنتين كاملتين، ثم توجه إلى بلدة مازونه ومكث بها عاماً ثم رحل إلى مدينة تلمسان وأقام بها ما يقارب من السنة وتتلمذ على كبار شيوخها.

17 - كان تفكيره في حال الأمة مبكراً، واجتهد في البحث عن العلل والأسباب التي أدت إلى التدهور والضعف المخيف في كيان الأمة، وذكر أن من أسباب هذا الضياع: فقدان القيادة الراشدة، وغياب العلماء الربانيين، وانعدام الغيرة الدينية، والانشغال بالخلافات التي فرقتهم شيعاً وجماعات.... الخ.

18 - رأى ابن السنوسي أن الإيمان هو القضية الأولى والأساسية لهذه الأمة، فإذا تخلف المسلمون عن غيرهم في وسائل الحياة الحرة الكريمة، فمرد ذلك إلى انحرافهم عن فهم الإسلام فهماً سليماً.

19 - ولا سبيل إلى إصلاح حالهم ومآلهم إلا بالإيمان على الوجه الذي بينه الله في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته، وهو أن يكون طاقة دافعة إلى العمل، وقوة محركة للبناء، وحافزاً طبيعياً للتفوق.

20 - رأى أهمية العلم في نهوض الأفراد والجماعات والأمم، لأن العلم ظهير الإيمان، وأساس العمل الصالح، ودليل العبادة.

21 - سافر إلى فاس ليزداد في طلب العلم وبقي في المغرب الأقصى سبع سنين متتالية، وكانت تجربته في فاس ثرية.

22 - وبعد ذلك ترك المغرب الأقصى وتوجه نحو المشرق، فمر بتونس وليبيا ثم دخل القاهرة وكان ذلك عام 1239 هـ/ 1824م.

23 - كانت زيارته لمصر قد رسخت في نفسه ضعف دولة الخلافة من جهة، وزاد ضعفها بظهور حكومة محمد علي باشا على مسرح الأحداث في مصر وقد وصل إلى قناعة مهمة في الإصلاح والنهوض.

24 - لقد خبر ابن السنوسي أوضاع الدولة العثمانية في وطنه الأول الجزائر حيث تسلط الولاة الأتراك وحكمهم الاستبدادي، وعجز الدولة عن منعهم من الظلم، وجاء إلى القاهرة فرأى حكم محمد علي باشا وانفراده بشئون مصر، فزاد اقتناعاً بعجز الدولة وضعفها.

25 - دخل ابن السنوسي الحجاز عام 1240 هـ/ 1825 م، ونزل مكة وكانت تلك الزيارة لمكة ذات أثر كبير في قيام الدعوة السنوسية وظهور شأنها.

26 - اهتم ابن السنوسي بالقضية الجزائرية، وعمل على إذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وحرص على المشاركة فيه بنفسه وأعد لذلك العدة، إلا أن الظروف والعوائق التي كانت في طريقه منعته من ذلك، وعمل على إمداد تلاميذه بالأسلحة والمال، وحرض أتباعه على القتال، واستمر أتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي.

27 - إن المفتاح الكبير لقبائل برقة، هو قناعتها بأن ابن السنوسي ولي من أولياء الله الصالحين، ولذلك سمعت لنصائحه، وأطاعت أوامره، فأرشدهم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

28 - كانت زاوية البيضاء في الجبل الأخضر أول الزوايا التي أسسها ابن السنوسي، وشرع يعلم الناس فيها، ويذكرهم بالله ويرشدهم إلى طريق النجاة في الدنيا والآخرة، وبدأت القبائل تتوافد إليه تطلب زيارته لها تبركاً به، وتطلب إقامة الزاوية فيه، وأحياناً ينتدب بعض الإخوان لذلك وهكذا بدأت القبائل تتسابق والزوايا تنتشر.

29 - توفرت في قبائل برقة ظروف ملائمة لظهور الحركات السنوسية بوصفها حركة إسلامية شاملة منها: انفصالها عن الأقطار المجاورة بالصحاري والفيافي التي تحيط بها، تتألف تلك القبائل من قبائل عربية بدوية تربطها أنماط حياة اجتماعية متجانسة، ويقوم ذلك النظام على عصبيات دموية مشتركة، وتقاليد وأعراف متشابهة، كانت بعيدة عن سيطرة المدن، كانت القبضة العثمانية عليها ضعيفة... إلخ.

30 - ظل ابن السنوسي خمس سنين ينشىء الزوايا وينظمها، ويرسم مناهج الدعوة ومبادئها، ويبث دعوته الإصلاحية عن طريق الزوايا.

31 - عاد بعد هذه السنوات الخمس إلى الحجاز، المركز الأول لدعوته، ومنذ ذلك الوقت كان للدعوة مركزان رئيسيان، شرقي في الحجاز وغربي في برقة، وعن هذين المركزين أخذت الدعوة السنوسية تنتشر بواسطة الزوايا هنا وهناك.

32 - طالت مدة غياب ابن السنوسي في الحجاز واشتد القلق في ليبيا لطول غيبته، وسافر إلى الحجاز أكثر من وفد ليبي ليلتمس منه أن يعود وكانوا يسافرون غالباً في موسم الحج.

33 - رجع ابن السنوسي إلى ليبيا واختار الجغبوب كمقر لقيادة الحركة السنوسية.

34 - استطاع ابن السنوسي أن يختار من بين المسلمين مجموعة خيرة من العلماء، والفقهاء، والدعاة ممن اتصفوا بالتميز الإيماني، والتفوق الروحي، والرصيد العلمي، والزاد الثقافي، ورجاحة العقل، وقوة الحجة، ورحابة الصدر، وسماحة النفس، وأصبحوا من أعمدة الحركة السنوسية أثناء حياته وبعد وفاته.

35 - قام عدد كبير بنصرة وتأييد الحركة السنوسية من العلماء، والفقهاء والقادة والشيوخ، ومن أشهر هؤلاء الإخوان الذين ساندوا ووقفوا مع ابن السنوسي في حركته الواسعة: محمد عبد الله التواتي، أحمد أبو القاسم التواتي، علي بن عبد المولى، أحمد بن فرج الله، محمد بن الشفيع، أحمد المقرحي، وعمران بن بركة الفيتوري وغيرهم كثير.

36 - استطاع ابن السنوسي بتوفيق الله تعالى أن يجعل من الإخوان والقبائل في الصحراء الكبرى مجتمعاً متماسكاً، متوحداً في عقيدته وتصوراته ومنهجه، فانعكس ذلك في توادهم وتراحمهم فيما بينهم، وأصبحوا كالجسد الواحد الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء.

37 - إن الأصول التي تساهم في توحيد المجتمع هي: وحدة العقيدة، وتحكيم الكتاب والسنة، وصدق الانتماء إلى الإسلام، طلب الحق والتحري في ذلك، وتحقيق الأخوة بين أفراد المجتمع.

38 - يظهر البعد التنظيمي في شخصية ابن السنوسي في بناء الزوايا التي يتربى فيها أتباعه والمنهج التربوي الذي ساروا عليه.

39 - كان نظام الزوايا معروفاً في العالم الإسلامي، والشمال الإفريقي، واستطاع ابن السنوسي بعقليته التنظيمية أن يطور مفهوم الزوايا بحيث أصبحت تمثل النواة الأولى لمجتمع تحكمه سلطة وعليه واجبات، اجتماعية، واقتصادية، وسياسية، ودعوية، وجهادية.

40 - انتهج ابن السنوسي منهجاً تربوياً استمده من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن خبرته بالطرق الصوفية التي درس جلها، وانتقد أخطاءها، وعمل على طريقة خاصة يسلكها أتباعه.

41 - إن الصوفي الحقيقي في رأيه من يتقيد بالكتاب والسنة وقد جعل للمريدين مراتب في السلوك يتدربون عليها أولها: تصحيح العقيدة بميزان أهل السنة والجماعة، أن يتعلم المريد ما يحتاج إليه من المسائل الفقهية المتعلقة بظاهر البدن على مذهب من المذاهب الأربعة، أن يتوجه المريد إلى تزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب وتنقية السر... إلخ.

42 - يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية - دولة الخلافة - ضرورة لازمة لوحدة الأمة، والدفاع عن كيانها، وأنه لا بد من معاضدتها والوقوف بجانبها، ويظهر أيضاً في حملة التوعية التي قام بها ضد الغزو القادم للأمة من قبل الأوروبيين وتنظيمه للزوايا، وتعبئة الأنصار، بغرس الثقة في دينهم وعقيدتهم، والثقة بقيادتهم، وتأخير الصدام مع الأوروبيين حتى يكتمل.

43 - كان أسلوب ابن السنوسي في الدعوة إلى الله مستمدّاً من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد نجح في إرشاد الطرق الصوفية المنحرفة، وتعامل مع الرقيق من الأفارقة بأسلوب رفيع، فاشتراهم وأعتقهم، وعلمهم ثم أرسلهم دعاة إلى قبائلهم، واهتم بدعوة القبائل وزعمائها، واستطاع أن يجعل منهم دعاة إلى الله تعالى واعتمد في أسلوبه على ضرب الأمثال، واستخدم القصة، واستعمل الشدة في محلها.

44 - إن فهم أفكار ابن السنوسي يمكننا الوصول إليها من خلال كتبه، ومن أهمها: كتاب المسائل العشر، السلسبيل المعين، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، ورسالة مقدمة موطأ الإمام مالك وغيرها.

45 - كانت كتب ابن السنوسي في أكثرها تتناول المباحث الفقهية، والصوفية، وفيها كتاباً أو كتابين يتناولان مواضيع تاريخية.

46 - أن ابن السنوسي في دراسته الطويلة لم يهمل الجانب التاريخي، لقناعته الراسخة بأهمية هذا العلم في تحقيق الفوائد التربوية، وإدراك السنن الربانية ومعرفة معالم تاريخ الإنسانية، ومعرفة تاريخ الأنبياء، ومعرفة سيرة النبي ﷺ ومعرفة تاريخ الخلفاء الراشدين، وسير العلماء والمجاهدين والدعاة... وكانت ثقافته التاريخية تمتاز بغزارة المعلومات، ويعتز بتاريخ أجداده، ويؤمن بضرورة حصر الإمامة في قريش، وكان أسلوبه في كتابة التاريخ على نمط مؤرخي المسلمين، ويقتصر على سرد الحوادث.

47 - كان ابن السنوسي فقيهاً متصوفاً، اهتم بالعلوم الفقهية، وغاص في معرفة حقائق النفوس البشرية، واستنبط منهجاً تربوياً لعلاج الأمراض النفسية، والرقي بها نحو الكمالات الإنسانية.

48 - اتصف ابن السنوسي بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق، والإخلاص، والدعوة على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع، والاستقامة... إلخ.

49 - إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات مشرقة من تاريخ بلادنا الحبيبة التي كانت - ونرجو من الله أن تكون - مركزاً لدعوة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها وما ذلك على الله بعزيز: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: 51].

هذه هي الخلاصة التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه.

وأختم الكتاب بقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتينا من عنده ياتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... ولا عن النفس لي دفع المضرات
والفقر لي وصف ذات لازم أبداً ... كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتِ

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).